د. رفيق حبيب

تفكيك الديموقراطية

دار الشروق

تفكيك
الديموقراطية

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مقـــدمـــة

فى الصفحات التالية رؤية لمجمل المعارك السياسية والثقافية ، التى شغلت من عمر أمتنا سنوات وسنوات ، وهى رؤية للحادث فى نهاية القرن العشرين ، ومحاولة ضمنيـة للخروج من تلك المعـارك ، قبل مقدم القـرن القادم . أو ربما هى محاولة تفجير المعارك ، حتى نخرج من دائرتها الجهنمية . ليست ـ بالطبع ـ القول الفصل ، ولكنها محاولـة للبحث عن نهاية لدوامة المعـارك التى لطخت ثوب الأمة .

ولمعالجة المعـارك ، ومواجهتهـا أساليـب عدة . منهـا التحليل ، ومحاولـة الفهـم ، والتفسير . والمحاولـة التـى نحـن بصددهـا فيهـا مـن كل ذلـك ، بالإضافة إلى كـونها تجريبا للصراحة ، وخروجا عن أى قنـاع ، فهى بعيدة عن المناورة ، وبعيدة عن أى محاولة للتجميـل . فهى عرض لا تنقصه الصراحة ، وصراحة لاتنقصها الجرأة ، أو هكذا نظن .

والهدف مـن ذلك ، أن نخـرج معـارك الساحـة عـن أى التباس سـائد ، ونفتح الجرح فى أعماقه . وفى ذلك نداء لعقلاء الأمـة ، لرؤية واقعنا كما هو بلا رتوش ، حتى نتدبر أمرنا ، قبل أن يفعل غيرنا ذلك .

ولاشـك أن كـل معـالجة متحيزة ، لأنها رؤيـة تعبر عـن صـاحبهـا . وفى المعارك ، وتحت وابل الرصاص ، ووسط جو مشحون بالعنف ، وملبد بسحب

المحاكمات العسكرية والقوانين سيئة السمعة ، فى جو كهذا نقول إن التحيز فريضة لايمكن الفكاك منها . فكل رؤية هى انتصار لفكرة ، وحرب على فكرة أخرى . وعندما تصاب أمة بالأزمات ، كأمتنا ، يصبح التحيز فى حد ذاته كفاحاً ونضالاً ، لأنه إعلان مبادىء ، ورسالة تحمل سلاح الإيمان ، وتواجه بسلاح الترهيب .

والصفحات التالية مشاهد للمعارك السياسية الراهنة التى تشغل عقل ووجدان أمة العرب والمسلمين ، وهى مشاهد من منظور متحيز ، لمقولة أننا أمة العرب والمسلمين ننتمى إلى حضارة متميزة ، ومختلفة عن غيرها . ولذلك ، فلنا قيمنا التى لا يجوز أن نتنازل عنها . ومن خلال هذا التحيز الواضح لقيم الحضارة العربية الإسلامية ، نعرض لمشاهد واقعنا المعاصر ، ومعاركه ، ورموزه ، وشعاراته .

لذلك نخضع مقولات الحياة السياسية لقيمنا ، فنرى الديمقراطية من خلال تحيزنا القيمى ، ونكشف أبعادها ودلالاتها وأساليبها ، وكذلك بالنسبة للحداثة والتقدم والليبرالية وغيرها من شعارات هذا الزمن . ولا نظن أن فى ذلك تحيزا مكروها ، بل هو التحيز الوحيد الجائز ، تحيز الأمة لقيمها ضد كل ما يفرض عليها .

د. رفيق حبيب

فبراير ١٩٩٦

استعمار صناعة محلية

عندما نعود إلى نهايات القرن التاسع عشر ، تظهر فى أفق التاريخ قضية الاحتلال العسكرى ، بكل أبعادها . تلك القضية التى فجرت مشاعر الوطنية الصادقة ، لتدفع أبناء هذا الوطن نحو معركة الاستقلال . وتبرز أسماء مثل أحمد عرابى ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وكلهم رموز تلك المرحلة ، التى تجمع فيها أبناء الشعب معاً ، كتلة واحدة فى مواجهة الاستعمار . ومالبث القرن العشرون على الوصول إلى منتصفه ، حيث قامت ثورة يوليو ، على يد جمال عبد الناصر وصحبه ، لتعيد لمصر استقلالها . وبعد أقل من نصف قرن من ثورة يوليو ، علينا أن نسأل أنفسنا بصدق ، هل تحقق الاستقلال ؟!

إن كفاح الشعب عبر السنوات الطويلة ، ليس دون فائدة . فما أنجز على أرض الواقع ، هو جزء أصيل من تاريخ النضال الوطنى . مع هذا يظل السؤال حائراً ، فالاستقلال كما فهمناه من التاريخ ، كان جلاء قوات الاحتلال العسكرى . ولكن الاستقلال كما نفهمه الآن ، مع نهايات القرن العشرين ، ليس هو جلاء القوات ، بل جلاء الأفكار والنفوذ والهيمنة . لذلك عدنا بعد هذه القصة الطويلة من الكفاح ، نطالب مرة أخرى بالاستقلال وهذه المرة نواجه مشكلة معقدة ، فالاحتلال موجود ، وغير منظور. وحتى ندركه لن ينفعنا البصر ، بل نحتاج للبصيرة .

تلك بالفعل إشكالية اللحظة الراهنة ، فعندما نجد أمامنا قوة محتلة غاشمة ، ترفع السلاح فى وجه أبناء الوطن ، عندئذ يسهل أن نحشد قوانا تجاهها ، ولكن عندما تختفى رموز الاحتلال ، ويصبح احتلالا ضمنيا غير صريح ، تتعقد الأمور وتتوه منا العلامات والرموز ، ويصعب أن نعرف العدو من الصديق . ولكن هل بالفعل لم يتحقق الاستقلال ؟!

إن العودة للوراء قليلاً ، تنفع فى تتبع مسيرة الأحداث . فقوات الاحتلال الغربى ، جاءت فى أشكال رمزية ، قبل وبعد ، قدومها فى شكل عسكرى سافر . إن وقائع مسيرة الأمة تكشف عن طوفان من الأفكار الغازية ، التى تدفقت على البلاد خلال القرن التاسع عشر ، وفى نهاية تدفق الأفكار ، جاءت قوات الاحتلال . وقبل أن يضع الجندى قدميه ليستعمر البلاد كان التاجر قد سبقه ، ووضع قدميه وحقق الهيمنة على اقتصاد البلاد . فالاحتلال بدأ مستتراً بالأفكار ، ثم بالأموال ، وتحول سافراً بالقوات العسكرية . وعندما احتلت الأفكار مساحة من العقل ، كونت لها أتباعا من أبناء الوطن أنفسهم . وعندما دخلت الأموال لتحتل مساحة أخرى ، تجمع حولها أصحاب مصالح من الوطنيين أنفسهم . وكذلك فإن القوات العسكرية ، وهى تمارس عملها ، جذبت حولها بعض العملاء .

والأفكار احتلت العقول ، والأموال استعمرت المصالح ، وعندما رحل الاستعمار العسكرى ، واجه قادة يوليو استعمار المصالح الذى بقى معركة ذات دلالة فى وجدانهم ووجدان الشعب . وبقى السد العالى ، رمزاً لمقاومة استعمار المصالح .ولكن الطابور الخامس للاستعمار والذى سبق قدومه ، استمر بعد خروجه ، وظل مؤثراً طيلة معارك استقلال المصالح ، وكان هو استعمار العقول وأتباعه .

وعندما كنا تحت الاحتلال ، كنا نواجه عملاءه ، وبعد خروج الاحتلال اختفى العملاء ، وبقى الوكلاء . فالأفكار التى استعمرت عقول القلة ، ظلت تجد أرضية لها من بين أبناء الوطن ، حتى كونت جماعة وكلاء الغرب . واستمر تأثير الاستعمار الثقافى ، بأشكاله المتعددة ، طيلة مراحل الكفاح ضد الاستعمار العسكرى ، وبعد جلائه ، وحتى الآن . وظل استعمار الأفكار ، هو الأرضية الثابتة ، لنزع كل احتمالات استقلال الأمة . فهو المرحلة التى مهدت لغيره من أشكال الاستعمار ، وهو كذلك العنصر الذى جعل الاستقلال الحقيقى وهماً ، سرعان ما يتبخر .

وبعد مرحلة من محاولة استقلال المصالح والقرار الوطنى . عدنا مرة أخرى إلى استعمار المصالح ، بل واستعمار القرار السياسى . وكان ذلك تحت مظلة الانفتاح الساداتى ، حيث عادت منظومة الهيمنة للاكتمال . ونشط وكلاء الغرب فى المجال الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ، من خلال مظلة واسعة من شبكة المصالح . ومع تزايد الوكلاء الغربيين ، تزايدت حدة ترابط المصالح ، لتكون نخبة حاكمة لأبناء الوطن ، ومحكومة من العالم الغربى .

نعم ، إننا لا نعانى من استعمار عسكرى خارجى . ولكننا نواجه استعمارا اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، استعمار لا يفرض نفسه من خلال الجيوش الغربية ، بل يفرض نفسه من خلال وكلاء الغرب ، إنه استعمار صناعة محلية !! فهل تحقق الاستقلال ؟! لا ، فالأفكار والقيم والمبادىء التى تحكمنا ليست منا ، والمصالح والنخب الحاكمة ، هى نموذج مفروض لم تختره الأمة ، لذلك فهو نموذج يستعمر عقل ووجدان الأمة ، ويسيطر على مصيرها وقرارها .

فالنموذج الغربى ، إذن يحكمنا من خلال رموز مصرية ، ويفرض هيمنته

ومصالحه من خلال شخوص مصرية . وما تحقق على أرض مصر ، هو نفسه ما يتحقق فى العالم العربى الآن ، فالواقع أن مصر استسلمت أولاً ، بفضل التنازلات الساداتية ، وأصبح ذنبها لا يغتفر ، لأنها قادت العالم العربى إلى مرحلة التنازلات الكبرى . تلك التنازلات التى بات واضحاً أنها تقترب من التنازل عن الهوية العربية الاسلامية ، من أجل الشرق أوسطية المزعومة . وما يحدث الآن فى الساحة العربية يحقق للغرب ما لم يستطع تحقيقه بقوة السلاح ، مضافاً له ميزة هامة ، وهى أن الاستعمار اكتسب ملامح عربية ، فأصبح من الصعب أن تعرفه وتميزه وتناضل ضده .

وملامح الاستعمار المحلى ، لا تختلف عن الاستعمار الخارجى السافر ، مما يؤكد أن النتائج والغايات واحدة . فوكلاء الغرب المحليون ، من حكام ونخب، يقومون بدور السلطة الأعلى ، المالكة للرسالة الحضارية ، رسالة التقدم والرخاء . وهى نفس المبررات التى ساقها الاستعمار نفسه ، عندما جاء ليحتل بلادنا ، تحت زعم أنه صاحب رسالة حضارية تجاه الشعوب المتخلفة .

نفس هذا الأمر يتكرر الآن ، فمثقفو الليبرالية يعلنون جهاراً نهاراً ، أنهم يحملون القيم التى ستغير هذا المجتمع المتخلف ، وتحقق التقدم . وتلك اللغة ليست بلا دلالة ، بل إن دلالتها تكشف النقاب عن أصلها فالنظر للمجتمع بإعتباره متخلفاً ، أى ككل سلبى ، يعنى ضمنا أننا نحتاج لإزالة ملامح هذا « الكل » ، وإكسابه ملامح جديدة ، مما يؤدى إلى إزالة « التخلف » وزرع «التقدم » . وهذه الفكرة استعمارية الشكل والمضمون ، لأنها تصور الأمة باعتبارها كيانا ماديا ، يمكن أن تنزع ملامحه ، وتزرع غيرها . وبهذا يصبح تبديل القوة الحاكمة بالسلاح ، قد تحول إلى تبديل العقول بالإغراء .

ومثقفو السلطة ، يفعلون نفس الشىء تقريباً ، عندما يوجهون خطابهم

الأخلاقى المتعالى للجماهير ، باعتبارها ابناعاقا ، يجب إخضاعه للسلطة . مما يعنى ضمنـاً أن هناك مـن يعرف مصلحـة الجماهير أكثر منهـا ، وهو الحاكـم بالضرورة . والحاكم الـذى يحمل رسالة إقامـة دولة الحداثة ، الدولـة القوية ، ورسالـة إدخال الـدولة فى النظام الـدولى ، هو القـائد الذى يقـود الشعب / القطيع ، بما يعرفه من مصلحة هذه الأمة التى لا تعرف مصلحتها .

النمـوذج واحـد إذن ، نمـوذج قـوة حاكمـة مسيطـرة متعـاليـة ، تعـرف «الطريق» وحـدها ، فى مواجهة شعـب جاهل متخلف ، يحتـاج لمن يقوده . ولأن النخبة الحاكمـة هى التى تعـرف فعلى الشعب « الجاهـل » ، أن يطيع ، لأنه يضمر الفضـل لهذه النخبة التى جاءته دون أن يصنعها هـو ، لتنقذه من تخلفه . وهـذه النخب تقـدم للجماهير مشروع الحداثة والتقـدم ، أى تقدم لها المشروع الغربـى، وتقوم بدور الـوكيل الذى يديـن للغرب بالفضـل ، والذى تتحقـق مصالحه فى الغـرب . فـالدول الغـربيـة هنا ، هـى المعلـم وصاحـب الأفكار، والمسيطر على المصلحة الرأسمالية النهائيـة ، وهى مانح الأجر . فكل وكلاء الغـرب يتقاضـون أجورهم مـن دول غربيـة ، والفرق أن الأجـر يسمى أحيانًا منحة أو قرضا ، أو بعثـة دراسية ، أو فرصة عمل ، أو إلقاء محاضرات ذات أجر عال ، أو فرص مؤتمرات دولية ، وكلها أشكال للمصالح تتولد عنها منافع ، تشد الوكيل الغربى إلى مصادر خارج حدود وطنه .

وهكذا تكتمل صورة استعماريـة كاملة ، ويحقق الغرب رسالتـه ، باعتباره صاحـب رسالـة حضاريـة ، لم يستطع أن يحققهـا بقواتـه العسكريـة المستفزة للمشاعر الـوطنية ، فأصبح يحقق هـذه الرسالة مـن خلال وكلائه المحليين . وبهذا أصبـح الغرب فى صـورة تبعـده عن استخـدام القـوة ، يجمل وجهـه ، ويدفع بوكـلائه للوقوف فى وجه أمتهم . وتدور عجلـة الهيمنة الغربية ، تحت

تهديد السلاح ، ولكنه هذه المرة سلاح الأنظمة المحلية الحاكمة . فالحداثة كنموذج مفروض من أعلى ، تحتاج لقوة السلاح ، حتى تصبح الجماهير متلقية ، ولا تشارك فى القرار ، لأنها جماهير « متخلفة » .

لهذا سنجد أن خطاب الحاكم ، مثل خطاب النخبة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، يؤكد دائماً على معوقات تحقيق التقدم والتنمية ، وفى كل مرة نكتشف أن المعوقات هى الجماهير نفسها ، عددها ومواليدها ، وتقاليدها وأعرافها ، وأفكارها وقيمها . وهى نظرة استعمارية تبارى نظرة المستشرقين ، فى غلوها ، وابتعادها عن جوهر الأمة وهويتها ، وعجزها الواضح عن فهم الأمة . فالاستعمار المحلى ، ليس إلا واجهة للقوى التى تقف خلفه ، وتحركه كالدمى .

ديمقراطية التكفير

فى كل نظام هناك ثوابت وأساسيات ، أى معايير أساسية ، توضع من أجل تحديد التوجه العام للنظام . وبالتالى اختيار مساراته الأساسية . وفى الفترة الماضية ، ومنذ ثورة يوليو ، وضعت معايير مختلفة للعمل السياسى ، وتوجهاته الأساسية . وكان منها نظام الحزب الواحد ، أو تحالف قوى الشعب، والذى تحول بعد ذلك إلى النظام الديمقراطى . ومنها كذلك التوجه الاشتراكى، والذى تحول إلى نظام رأسمالى .

والمشكلة الحقيقية فى هذه التوجهات ، أنها لم تحظ بالمبررات الكافية ، وبمعنى أكثر دقة لم تحظ بالشرعية . فحتى يكون النظام شرعيا ، عليه أن يمر بعدد من المراحل والإجراءات ، التى تبرر وجوده ، وتثبت أنه تعبير عن اختيارات الأمة . ولكن ما حدث على أرض الواقع ، كان أمرا آخر . فكل نظام سياسى ، يتجسد فى شخصية الحاكم على وجه الحصر ، وكذلك الجماعة الحاكمة ، كسياق محيط يحدد مجال النفوذ والمشورة . ولهذا كانت الأنظمة تبدأ بإعلان الحاكم للتوجه السياسى الجديد الذى يختاره . ثم تقوم الجماعة الحاكمة، بكل أدواتها ، أى مؤسسات الحكم والدولة معاً ، فى نشر التوجه السياسى الجديد وتعبئة الجماهير حوله . ويجرى ذلك غالباً ، من خلال طرح المبررات ، وتحديد تصور عن الوضع فى النظام الجديد.

وفى هذا المناخ ، ساد التحول من نظام إلى آخر ، تحت دعاوى تتراوح بين

تقييم النظام السابق ، وإثبات فشله ، إلى التأكيد على أن النظام الجديد هو اختيار العصر . وهكذا دارت عجلة المحاولة والخطأ ، وكان لحمها وسداها استيراد أنظمة غربية وتطبيقها على المجتمع المصرى ، ثم التجاوز عنها باعتبارها فاشلة ، وفرض نظام جديد ، وهكذا .

ونظرة سريعة لما حدث ، تؤكد أن الجماهير لم تأخذ هى مبادرة اختيار نظام وترك آخر ، بل الحكام كانوا ومازالوا هم أصحاب المبادرة ، وأصحاب الحق الوحيد فى اختيار نظام الحكم وتوجهاته . بهذا أصبحت الجماهير سلبية تماماً ، حيث يفرض عليها نظام ويتم التأكيد على أهميته ونفعه . ومن خلال التغيير فى الأنظمة الحاكمة ، وتغيير البرامج والتوجهات ، زادت درجة سلبية الجماهير، لأنها ببساطة واجهت حالة فريدة ، حيث يتم إقناعها بالفكرة ثم، عكسها . مثل إقناع الجماهير بالحزب الواحد ، ثم تعدد الأحزاب ، وكذلك الاشتراكية ثم الرأسمالية ، وأيضا إقناع الجماهير بالحل العسكرى للاحتلال الإسرائيلى ، ثم إقناعها بالحل السلمى .

أدى ذلك فى النهاية ـ حسب تصورنا ـ إلى أن الجماهير أصبحت لا تمارس حقها ، وبالتالى تخلت عن مسئوليتها . فعندما ينزع من الأمة ، حق اتخاذ القرار ، تنزع الأمة عن نفسها أى مسئولية تجاه ما يحدث حولها . ويحولها الموقف السلبى إلى مشاهد ، يراقب الحكومة ، ليحدد مدى نجاحها من فشلها ، ويحدد موقفه بعد ذلك ، وهو موقف الصمت غالباً ، ثم التمرد أحياناً . إن هذا الوضع ، أدى إلى عزل الجماهير عن مجمل السياسات التى تمارسها الحكومة ، مما جعلها فى النهاية تأخذ موقفاً شديد الخطورة . فالسلبية ترجمت فى النهاية إلى موقف من يرفض المشاركة فى أمر لم يقرره . فالحكومة تضع السياسات وعليها أن تنفذها ، أما الجماهير فليست ملزمة بهذه السياسات

ويمكنها أن تتهرب منها . والأهم من ذلك ، أن الجماهير لم تعد تشارك فى مشروع مستقبلى يحقق لـلأمة التقدم المنشود . ونتصور أن هذا ، قد أدى فى النهاية ، إلى مواقف من الشعب نفسه من شأنها أن تعطل ما تقوم به الحكومة ، أو على الأقل مواقف لا تساعد الحكومة على إنجاز ما تريد .

والحقيقة أن الحكام ونخبهم ، قد أعلنوا سياسات وتوجهات ليست من إبداعهم ، بل تم نقلها من خلال وسيط ، وهو النخبة المثقفة ذات التوجه الغربى . فأصبح الحاكم يقتبس أفكار هذه النخب وينفذها . وهكذا توالت السياسات ، وفى كل مرة لا يتحقق الهدف ، يتم التخلص من المسئولية عما حدث . ويحدث ذلك خاصة مع تغير رئيس الجمهورية ، حيث يتنصل اللاحق من مسئوليته تجاه السابق . تحت افتراض مستمر متكرر ، وهو أن ما حدث أصابه الخطأ ، وما يحدث هو الصواب . بالطبع يختلف هذا الوضع بين مبارك والسادات ، حيث يمثل الأول امتدادا للثانى فى الكثير من السياسات .

وهكذا مع منتصف السبعينات ، ظهر الاتجاه نحو الديمقراطية . لتأخذ أشكالاً متعددة ، تحت مبررات مثل التدرج ، وتهيئة الشعب حتى ينضج ويمارس الديمقراطية . ومع تسعينات القرن العشرين ، وصلنا بالكاد لما يسمونه « بالديمقراطية المقيدة » ، وهى شكل مشوه للديمقراطية . ويبدو أن هذا شأن كل الأنظمة المستوردة المفروضة على الأمة فهى أنظمة غربية إلا كثيرا . والواقع أن معظم التجارب فى القرن العشرين ، لم تكتمل ولم تنجح ، ويتم التحول عنها ورفضها وهكذا . والأكثر طرافة من ذلك ، أن الخمسينات تميزت بتوجه رأسمالى ، ثم بعدها فى الستينات ظهر التوجه الاشتراكى ، لنعود فى السبعينات للتوجه الرأسمالى . وكأننا ندور فى حلقة مفرغة ، فلم نصل إلى النظام الملائم لنا ، ولم نحصد فى النهاية إلا تجارب غلب فشلها على نجاحها .

ورغم عدم شرعية هذه السياسة فى الاقتباس من الغرب ، وفرض الأنظمة على الأمة ، إلا أن الخيار الديمقراطى صحبه حملة إعلامية مكثفة من معظم النخب الحاكمة ، أوصلتنا إلى وضع يظهر فيه بوضوح أن الديمقراطية الآن هى معيار العمل السياسى وشرطه الأساسى . ولكن هذا المعيار يطبق بأساليب جد غريبة ، فنظام الحكم المنوط به تنفيذ النظام الديمقراطى ، يمارس من الأساليب ما يجعل الديمقراطية هى وسيلة لتأييد نظام الحكم فقط . فهى ليست مشروطة ومقيدة ، بل هى خالية من تداول السلطة ، وخالية أحياناً من حرية التعبير عن الرأى .

وعلى الجانب الآخر ، اتفقت النخبة الحاكمة ونخبة المثقفين المتغربين على أن الديمقراطية شرط لأى تيار سياسى ، يريد العمل السياسى . ومن خلال هذا المعيار ، أصبحت هناك قوى يلزم استبعادها والقضاء عليها ، لأنها غير ديمقراطية . وهناك قوى أخرى تدعو للديمقراطية ، وتصر النخب على أنها تدعى الديمقراطية ، ولكنها سيئة النية ، ولذلك يلزم استبعادها . وهكذا أصبحت الديمقراطية تقاس بالنيات وأصبح من يقبلها عن نية خالصة مؤمنا ، ومن يقبلها عن نية غير خالصة كافرا . وتحولت الديمقراطية إلى أداة تعصف بتيارات سياسية عديدة ، وتبيح دماء البعض ، وتبيح حرية البعض ، ومن لا يطوله العنف الرسمى ، تطوله المحاكم ، وعلى رأسها المحاكم العسكرية .

فهل أنت ديمقراطى ؟ نعم إنه السؤال الهام والأساسى الآن ، فإذا كانت بعض التيارات الإسلامية تشددت حتى بدأت تفتش عن النيات وتسأل هل أنت مؤمن ؟ فإن قوى التقدم والاستنارة تفتش عن النيات وتسأل هل أنت ديمقراطى ؟ والحل بالطبع ليس فى الإجابة بنعم أولا ، ولكن فى تحديد خفايا

القلوب ، وبدأ الجميع فى البحث فيما داخل الصدور ، فانطلقت حرب التكفير.

وحرب التكفير لها دلالة هامة ، فهى تشير إلى أن هناك معسكرات سياسية ، ذات حدود واضحة ، وأنَ كل معسكر يأخذ وضع الاستعداد تجاه المعسكر الآخر . فهى حالة من الاستنفار السياسى . ولذلك ، علينا أن نؤكد أن الإيمان فى الصدور ، فليس لأحد أن يسأل عن إيمان الآخر ، ويتصور أنه يعرف ما يبطن . ولكن عندما يكون السؤال / الاتهام حول الديمقراطية ، فإن الموقف يزداد تعقيداً . فعلينا أن نعرف ما المقصود بالديمقراطية . فهل قبول الديمقراطية ، يعني قبول النموذج الغربى واتباعه ؟ فإذا كانت الإجابة بنعم ، فإن ذلك يعنى أن فرض الديمقراطية على الجميع ، يعنى فرض النظام الغربى على الجميع أيضاً . وتصبح الديمقراطية بحق ، هى نظام لتكفير كل من يخرج عن النموذج الغربى ، واتهامه ليس بالكفر المخرج من الملة ، بل بالكفر المخرج من الوطنية ، ثم هو الكفر الذى يسقط كل الحقوق السياسية ، ثم وذلك هو الأهم ، أن عملية التكفير على ملة الديمقراطية ، تؤدى إلى استحلال دماء الآخرين وحريتهم وإنسانيتهم .

إن الأمر جد خطير ، فإذا تصورنا أن هناك من يحاول فرض نماذج تراثية متطرفة بقوة السلاح ، فإننا أيضا نواجه فرض الديمقراطية بقوة السلاح . لأن الشعار صنع فى الغرب ، وحمله وكلاؤه ، ثم وضعته أجهزة الإعلام موضع القداسة ، ثم بدأنا نحاكم تيارات كثيرة على محك هذه القداسة المستوردة . والواقع أن التيارات الإسلامية هى المستهدفة من هذه العملية . وهى التى تم «تكفيرها» جميعاً ، لأنها خارج ملة الديمقراطية . ولذلك تم استحلالها .

والخطورة هنا ، أن الديمقراطية كمعنى مقدس ، وملة تفرض على الجميع ، ولا مكان فيها لقبول الآخر ، أصبحت رأس حربة فى مواجهة تيارات التراث ، أى الحركات الإسلامية بكل فصائلها ، ومعنى ذلك أن التراث يقبل أو يرفض ، حسب انتمائه أو إيمانه بالديمقراطية . وهكذا أصبحت الديمقراطية أكثر قداسة من التراث نفسه ، وأصبحت الحضارة الإسلامية ، كمشروع نهضة وعمل سياسى ، تحتاج حتى تمنح الشرعية ، إلى صك يؤكد ديمقراطيتها ، وهذا الصك لن يمنح لها إلا من النخبة الحاكمة المتغربة .

لذلك نؤكد أن محكات الشرعية الحقيقية يجب أن تنبع من التراث ، لا أن تفرض عليه . حيث إن التراث ، هو تلك القيم والأفكار والمبادىء ، التى تحملها الأمة جيلاً بعد جيل . ومن خلال إيمان الأمة بتراثها وثوابتها ، تتحول تلك القيم والمبادىء إلى معيار للشرعية . ولذلك علينا أن نسأل عن شرعية الديمقراطية من خلال منظومة المبادىء التى تحملها الحضارة الإسلامية ، حضارة الأمة ، وليس العكس . فإذا كانت الديمقراطية تحمل معانى تتلاءم مع تراث الأمة ، فهذا ما نقبله ، أما ما يخالف تراث الأمة فلا يمكن قبوله . فالقداسة لأصولنا ، ولن تكون لأصول الآخرين . بمعنى أن القداسة بالنسبة لنا ، تمنح فقط للقيم التى توارثتها الأمة ، والتى تؤمن بها .

والأفضل فى رأيى ، أن نعتبر تجربة الغرب الديمقراطية ، دافعا لنا لنؤكد جوانب التسامح فى حضارتنا ، فيما يخص الممارسة السياسية . وبالتالى فإن المستحسن أن نخرج القيم التى ننتمى لها ، ونعيد طرحها وتطويرها . ومن داخل الحضارة الإسلامية ، تظهر أهمية التعددية كإيمان أصيل للأمة ، كذلك توسيع قاعدة المشاركة فى القرار السياسى بين الجماعات المكونة للأمة ، ويصبح تداول السلطة بين التيارات المعبرة عن الأمة ، رهنا بالاتفاق فى الفروع ، والإجماع فى الأصول .

بمعنى آخر ، إن مصطلح الديمقراطية ، مقبول إذا كان يعنى تحقيقا لمبادىء الممارسة السياسية الممثلة لأمتنا ، وهو مصطلح مرفوض إذا كان يعنى تحييد تراث الأمة ، وفرض النموذج الغربى . ولكن الأفضل من ذلك ، أن نعبر عن أفكارنا من خلال مصطلحاتنا الخاصة فهل هذا يعنى « الكفر» بالديمقراطية والخروج من دائرة الشرعية المفروضة علينا ، مما يعنى استحلال الحقوق السياسية على أقل تقدير ؟! وهل وصلنا إلى الحالة التى لا نستطيع أن نعبر فيها عن أنفسنا إلا بعد الحصول على « صك الغفران » من الحضارة الغربية عن طريق وكلائها المحليين ؟!

دمقرطة الإسلامى

منذ ثمانينات القرن العشرين خاصة ، والمجتمع العربى يناقش قضية الديمقراطية فى الحركة الإسلامية . والحقيقة أن النقاش انحصر فى فرض شرط الديمقراطية على الحركة الإسلامية ، ثم رفض أى إعلان ديمقراطى منها ، على أساس أنه إعلان وهمى . ولعل تجربة الجزائر ، هى الرمز المعاصر لتلك الإشكالية . فالقوى الإسلامية فى الجزائر وافقت على شرط الديمقراطية ، وسمح لها بدخول اللعبة السياسية والانتخابية ، وعندما ظهرت قدرتها على الوصول للحكم ، انقلب العسكر عليها ، ومعهم بعض النخب والقوى ، وأوقفت العملية الديمقراطية ، حتى لا تكون وسيلة لوصول الإسلاميين للحكم .

ومع حادثة الجزائر الشهيرة ، تحولت أقلام النخب العلمانية إلى إشعال فتيل الحرب ضد القوى الإسلامية . وكان شعار الحرب ، أن القوى الإسلامية تؤمن بالديمقراطية « لمرة واحدة فقط » . أى أنها تؤمن بأن الديمقراطية وسيلة حتى تصل القوى الإسلامية للحكم ، ثم تقوم هى بإيقاف العملية الديمقراطية تماماً . وهنا تجسد رأى يؤكد أن المقولات الديمقراطية للحركات الإسلامية ، ليست إلا شعارا خادعا ، لا تؤمن به هذه الحركات نفسها . وبذلك تم تعميم الحدث الجزائرى ، وتحول إلى مطالبة حكومية ونخبوية بمنع التيار الإسلامى من دخول اللعبة السياسية تماماً .

هنا تفاقم المشهد الجزائرى ، بصور متعددة ومختلفة . ففى الجزائر تحولت الدولة ككيان رمزى إلى وهم ، وجرفت البلاد إلى حرب عصابات مستمرة راح ضحيتها الآلاف . وبعيداً عن الجزائر ، تحولت الساحة السياسية إلى حرب معنوية بين تيار العلمانية وتيار الإسلامية ، مما أدى إلى حالة بها الكثير من الانقسام والتفكك . وكأن الدول العربية مقبلة على صراع حضارى داخلى ، وأنها أصبحت ساحة لمعركة دولية ، تقودها أطراف محلية ، وكأننا أمة تأكل نفسها .

ولكن المشكلة لاتقف عند هذا الحد ، بل تحولت بالفعل إلى توجهات شديدة العمق ، تفعل فعلها فى بنية الأمة نفسها ، وتركيبها الأساسى. فأصبحنا أمام مأزق حقيقى ، لايمكننا الخروج منه ، إلا بتجاوز الإشكاليات الأساسية لهذه الأزمة .

نعنى بذلك أن شرط الديمقراطية كقاعدة للعمل السياسى ، تحول إلى معيار تملكه القوى العلمانية ، فأصبحت هذه القوى هى المسيطرة على المفهوم، وهى الداعية له . وعلى هذا الأساس ، أصبحت هناك فئة محددة تملك أن تقرر ديمقراطية القوى الأخرى من عدمها . ويتعقد الموقف ، بسبب تبنى هذه القوى فى معظمها للنموذج الحضارى الغربى ، مما جعلها وكيلا للحضارة الغربية ، وفى نفس الوقت صاحب الحق الوحيد فى قبول ورفض القوى السياسية الأخرى ، وتحديد مدى صلاحيتها للعمل السياسى . وبهذا فرض النموذج الغربى باعتباره الإطار المرجعى لتحديد « الشرعى » وعزل « غير الشرعى » .

أدى ذلك بالضرورة لأزمة « الإسلامى » ، فأى طرح إسلامى يوضع على معيار غربى ، حتى يتم قبوله أو رفضه . وفى ذلك إجحاف سيؤدى بنا إلى

مهالك حقيقية ولنتتبع أثر ذلك على حياتنا الثقافية والسياسية . فعلى الجانب الثقافى ، أصبح « الإسلامى » مرفوضا مادام يخرج عن قواعد المحك الغربى ، وهنا ظهر « الإسلامى » المقبول ، ولم يكن هو إلا فكرا إسلاميا يسمى «مستنيرا» ، وفى مضمونه لا نجد إلا نموذجا غربيا يتحلى ببعض الزخارف الإسلامية . وبهذا تصاغ الحياة الثقافية على أساس الصدام بين « الإسلامى المستنير » و « الإسلامى المتطرف » . والأول مستوفى الشروط الغربية ، أقصد شروط الديمقراطية ، والثانى خارج عنها بالضرورة . والمشكلة هنا أن «المستنير» على محك التراث والتاريخ ومرجعية الأمة ، ليس إسلاميا . والأزمة الأهم ، أن « المتطرف » أصبح وعاءً يشمل كل من يتبع مرجعية الأمة . لذلك اختفى تدريجياً من قاموسنا الثقافى ، وصف « الاعتدال » ، وهكذا بدأنا فى تشكيل وعى مشوه جديد .

فمن داخل مرجعية الأمة ، تخرج تيارات عديدة ، بعضها « متطرف » ، وبعضها « معتدل » وكل من التطرف والاعتدال ، يلتصق بفكرة أو أخرى . نعنى بذلك ، أن من داخل مرجعية الأمة هناك تيارات متعددة ، لها مضمون مختلف ، فمثلاً هناك تيارات تسيد « الحق » على « العدل» ، وتيارات تجعل الحق محققا بالعدل . ومع تنوع أطروحات التراث من حيث المضمون ، هناك جانب آخر للتصنيف ، وهو تمييز يسرى على كل تيار وكل فكرة ، يتضح فى صياغة الفكرة وتحديد معاييرها ، وأساليب تنفيذها . ومن هنا يظهر التطرف والاعتدال .

ولكن إدخال معيار الديمقراطية كمرجع رمزى للحضارة الغربية ككل ومنظومتها العلمانية ، أدى إلى إعادة تصنيف التطرف والاعتدال الإسلاميين ، بوصفهما توزيع أدوار ، واختلاف أقنعة ، وتم سحب رخصة « الديمقراطية »

من كل التيارات ذات النزعة التراثية والإسلامية . وضمنا أصبح التراث مصدرا للشمولية والرجعية وإهدار الحقوق . وعلى هذا ، ظهر تصنيف الاستنارة / التطرف . وهو ليس خطا متصلا ، به اختلافات فى الدرجة ، وتنويعات متتالية ، مثل تصنيف التطرف / الاعتدال ، بل هو تصنيف فئوى ، به فئتان ، كل منهما منفصل عن الآخر . فإما أن تكون مستنيراً ، وديمقراطياً ، وعصرياً ، وتقدميا ، وعلمانياً ، أو تكون متطرفاً ، وأصولياً ، ومتخلفاً ، وظلامياً ، وإرهابياً .

والواقع أن هذا التصنيف ، يغلق كل أبواب الاختيار ، لأنه يطرح بديلين ، الأول هو الانتماء للمنظومة الغربية ، والثانى هو الخروج من رحمة النخب صاحبة الحق فى قيادة هذه الشعوب المتخلفة . ويمكننا أن نقول أيضاً ، إن الخيار هو بين ممارسة العمل السياسى ، أو عدم ممارسته ، وهنا نأتى للجانب السياسى الهام . فمحك الديمقراطية أصبح هو الفاصل بين ممارسة دور سياسى ، من عدمه ، وهو أيضاً محك فاصل بين الحياة خارج السجن أو داخله .

بهذا أصبحنا فى أزمة ثقافية وسياسية ، أزمة الإسلامى ، لا بل أزمة حضارتنا برمتها . وهى أزمة تتجاوز بالفعل « شرط الديمقراطية » لتكشف على أنه غطاء « لشرط التغريب » . فإذا لم ترفض الأطروحات التراثية ، سياسياً ، لعدم ديمقراطيتها ، فهى ترفض ثقافياً ، لأنها منافية لحقوق الإنسان والأقليات . . وهكذا . وباختصار ، فإن استخدام المرجعية الغربية كشرط ، لايعنى سوى الخروج عن مرجعية الأمة تماماً ، مع الاحتفاظ ببعض الملامح الفلكلورية المتحفية ، ذات قوة الجذب السياحية .

فهل تجوز «دمقرطة الإسلامى» ؟! والسؤال بشكل آخر ، هل « الإسلامى»

معاد للديمقراطية ، ولحقوق الآخرين ، وللعصر ، حتى يشترط أن يمر بعملية « دمقرطة » قبل السماح له بالنشاط ؟ وهل هذا يعنى مجرد تطوير «الإسلامى» ، أم إنه يعنى تحويله إلى شىء « غير إسلامى » ؟! .

المشكلة فى ظنى ، تكمن فى الاعتقاد بأن تراثنا يميل إلى تعسف « غير إنسانى » ، ولذلك لا يجوز أن نلجأ له ، إلا بعد أن نجعله « إنسانيا » . وهذا الاعتقاد على درجة كبيرة من الخطورة . لأنه اتهام يوجه أساساً إلى صلب انتمائنا الحضارى ، ويمكن أن يشوه رؤيتنا لذاتنا تماماً . الأمر الآخر ، الأكثر أهمية ، أن هذه الرؤية عنصرية ساخرة ، والأعجب أن تأتى العنصرية من «عربى » ضد « العروبة » ، ومن « إسلامى » ضد الإسلامية . نعم ، الأعجب أن نكون أصحاب رؤية عنصرية ضد أنفسنا ، فهو أمر قد يكون جديداً وفريداً فى تاريخ البشرية .

فهل علينا أن نختار بين الإسلامى والديمقراطى ؟ الواقع أن السؤال فى حد ذاته خطأ منذ البداية ، وتناولنا للقضية دخيل بقدر ما هو مدمر . فإدخال شروط النموذج الغربى ، على تراثنا ، يعنى هدم التراث ، واللحاق بالنموذج الغربى . ولذلك علينا أن نعيد طرح القضية بأسلوب آخر ، أسلوب الباحث عن شروط وقواعد الحياة الثقافية والسياسية . وكأى أمة ، علينا أن نحدد الشروط من أنفسنا وبأنفسنا ، نحدد الشروط التى تخرج منا ، ومن مرجعيتنا ، بما يؤدى إلى تطوير التراث ، وإخراج أفضل ما فيه ، فيصبح الماضى بكل تجاربه دافعا للمستقبل ، ودافعا لتجاوز سلبيات الماضى ، وأيضاً تجاوز إيجابيات الماضى إلى إيجابيات أفضل منها . لذلك علينا أن نبحث عن شروط العمل المستقبلى ، حتى نستطيع أن نتحرر من هيمنة الغرب ، وأيضا نتحرر من الجمود المنسوب للتراث .

وعندما نحدد شروط العمل الثقافى والسياسى ، يمكن أن نسميها ديمقراطية ، أو نختار لها اسما أفضل وأكثر تعريباً وتعبيراً عنا . فإذا كنا بالفعل نحتاج « للديمقراطية » وأظن أنها احتياج بالفعل ، فعلينا أن نعرف هذا الاحتياج ونحرره من أسر الأطروحات الغربية .

فنحن كأمة ، نحتاج إلى « التعددية » ، أى الاقتناع الكامل ، بأن الأفراد والجماعات تتعدد ، وبالتالى تتعدد أطروحاتها . وفى التعدد هناك صواب وأصوب ، فالتعدد بين أنداد ، والاختيار بين بدائل . والتعددية تكتسب فاعليتها ، من إعطاء الحرية للجماعات حتى تنظم نفسها وتعبر عن توجهاتها ، فتظهر المذاهب والأحزاب والتيارات . ومن تعدد تلك الكيانات تزدهر الأمة ، فالتعدد شرط الازدهار. بمعنى أن ظهور توجه واحد ، أو تيار واحد ، هو شرط الأفول ، وتعدد الأطروحات شرط الازدهار ، وسبب حيوية المجتمع ، ومصدر الإبداع والتجديد . والاختيار فى التعددية ، ليس منحاً للسلطة لبديل دون غيره ، بل أن كل البدائل لها حق الوجود والمشاركة والنشاط دائماً ، وحقها تكتسبه من مؤيديها وفاعليتها ودورها . والبديل الذى يحظى بالأغلبية ، يصبح البديل القائد ، ولكن تحت قاعدة أن القائد ند بين أنداد . ويظل المحك الرئيسى لعناصر التعددية ، أن كلا منها يعبر عن جماعة تنتمى للأمة ، والمفاضلة بينها ، وهى مفاضلة بين أنداد ، تقوم على المحك الأساسى الجوهرى ، وهو أن الأمة مصدر السلطات .

بالطبع ليست الكلمات السابقة نظاماً ، نقبله أو نرفضه ، بل هى مجرد كلمات تفتح الأذهان للتفكير . ونضعها هنا لنؤكد أن « شرط الديمقراطية » ليس هو الحل الوحيد للحفاظ على حريتنا وحقنا وإنسانيتنا ، ونؤكد أيضا أن كل حضارة « إنسانية » فى جوهرها وأن كل حضارة تخلق لأمتها أسباب السعادة والكرامة والعزة .

بـالإضافـة لـذلك ، فـإننا نتصـور أن « شرط التعـددية » يتجـاوز « شرط الديمقـراطية » لأنـه أكثر احتراماً لتميـز واختلاف الجماعـات ، وأكثر رحـابة لقبول الجميـع فهل يمكن أن نضع « شرط التعـددية » محكاً للعمل السيـاسى والثقافى ؟ وهل يمكن أن نسيده على « شرط الديمقراطية » نفسه ؟

أتصور ذلك ، إن التعددية قاعـدة أساسية لبناء الأمة ، وإنها شرط حياتها وازدهارهـا ، وإنها أيضا قيمـة أساسية حملهـا الأجداد ، وحققـوا بها إنجازات أبهرت العالم . أعنى بذلك أن « التعددية » قيمة مرجعية فى تراث أمة العرب ، وقيمة جوهرية فى المرجعية الإسلامية . فهل مـازلنا نحتاج لدمقرطة الإسلامى حتى نمنحـه حق الوجـود ، أم إن تعددية الإسـلامى قـد تكون سببا كـافياً ، ودستوراً لازماً ، تعمل على أساسه ومن خلاله قوى الأمة ، المتمسكة بتراثها ، لأن التعددية تراثها ؟!!

صناع الفتنة

مع التقدم التكنولوجى ، وتطـور أساليب الاتصال ، تحول الإعلام إلى أداة شديدة التأثير على وعى الجماهير ، فـالإعلام المعاصر ، بكل أدواته ، تحول إلى قـوة طاغيـة ومـؤثرة . وهـى طـاغية ، لأنها لا تترك مسـاحـات لحرية الفكـر والاكتشاف ، بل أصبح الإعلام أداة تحدد الوعـى ، بأسلوب سابق التجهيز. فـالإعلام ينشر قـوالـب إدراكية ، يتـم تشكيلها وصنـاعتهـا ، داخل أوسـاط النخبة، أو جماعـات الضغط ، أو الحكـومات . ثـم تقوم الآلـة الإعلاميـة ، بضـخ فيضـى هائل مـن المعلـومـات والتطـورات والآراء ، فى عقل المشـاهـد والمستمع والقـارىء ، أى عقل الشعوب . وقـد أدى ذلك ، إلى خلـق المتلقى السلبى . فالمواطن العادى ، لايستطيع بسهـولة مواجهة الأدوات الإعلامية ، لأنـه لا يملك أدواتـه الخاصـة فى المعرفـة . فـالإعلام يقـدم المعلـومات بعـد تشكيلها فى قـوالب جامـدة ، لاتسمح للمتلقـى بنقدها أو إعـادة تحليلها . فالصـورة الإعلامية مـركبة وموجهة ، يصعـب إعادة تفكيكها ، للـوصول إلى العناصر الحقيقية .

وخلال عملية صناعة الوعى ، تقدم المدركات سابقة التجهيز ، من خلال لعبة معلوماتية شديدة الخطورة . فعصر المعلومات ، كما يسمى ، ليس عصراً لحرية الحصـول على المعلومات الحقيقية . بـل هو عصر صناعة المعلـومات . فالبيانات والأحداث والوقائع المتاحـة أمام المواطن العادى ، ليست مواد خاما

أولية ، بـل هى مـواد متحيزة ، يتم صنـاعتها ، حتـى تعطى انطبـاعات دون غيرها. وعمليـة صناعـة الوعى المعلـوماتـى ، معقدة لـدرجة كبيرة ، كما أنها ليست عملية أخلاقية ، بل هى فى كثير مـن الأحيان عملية نفعية ميكافيلية . لذلـك يتم معـالجة المعلومات فى معـامل سيـاسية متحيـزة . وأدوات المعالجة كثيرة، ومنها المستتر ، والسـافر. فالعمليـات المستترة ، هى تلك التـى تعتمد على الانتقاء ، فتختفى بيانات وتظهر أخـرى . وكذلك هناك عمليات المعالجة الموجهـة ، التى يتـم من خـلالها استخلاص معلـومـات عامـة ، من خـلال حسابـات ووجهات نظـر متحيزة . أمـا العمليات السـافرة ، فهـى التضليل الإعلامى ، وأدواته متعددة ، تصل لحد نشر وقائع كاذبة ، أو تحريف الحقائق تماماً ، حتى تعطى مدلولاً عكس حقيقتها .

فالإعـلام إذن ، أداة يمكن أن تستخـدم لأغراض شتـى ، ورغم مقـولات عصر المعلـومـات ، إلا أن المتحقـق حتى الآن ، هـو سيـادة نمـط التضليـل والتوجيه . وكأن عصر المعلومات ، يعنى حزب المعلومات . حيث من يملك القوة والمال ، يملك بالتالى المعلومات ، وبها يحقق سيادته على الوعى السائد .

وهذه الصورة الطاغية للإعلام ، تواجه بمحاولات شتى نحو خلق « إعلام خاص » ، يخرج مـن دائرة الوعـى السائد والمفـروض ، ويحاول أن يقدم وعيـا آخـر. ولعل مـا يحدث فى الغرب ، مـن استخدام لشبكـة اتصالات الحاسـب الآلى، يعد نمـوذجا لذلك حيـث يحاول البعض ، أفراداً وجماعات ، تكـوين شبكات خـاصة لتـداول المعلومـات ، خاصـة تلك التـى لا تجد مكانـا لها فى وسـائل الإعـلام ، وتظهر هنـا رؤى جـديـدة ، تقـاوم الرؤى الطـاغيـة ، أى الحاكمة. ومع ذلك ، فإن وسـائل الإعلام « الرسمى » ، أى تلك الحائزة على دعم التحالف الحاكـم ، مازالت هى الأقوى والأكثر تأثيراً . ويضاف لذلك ،

دور الدولة فى عملية الإعلام ، حيث إن الدولـة بإمكانياتها ، قادرة على فرض هيمنة إعلامية شاملة ، يصعب فى الواقع اختراقها ، أو الإفلات من تأثيرها . مما يجعلنا فى النهـايـة ، نشكك فى وجـود أى قـدر من « حـريـة المعرفـة » ، فالحاصل أن المتاح هو حرية قبول القوالب الفكرية والمعلوماتية المفروضة .

لهذا أصبح لـزاماً علينـا أن نحرر الوعـى ، حتى نستطيـع تحرير الإرادة ، وبـالتالى تحريـر المكبوت سيـاسياً واجتماعيـا . فـالإعلام الموجـه ، ليس فقـط معلومة مضللة ، بل هو خيال مقيد ، وإبداع أسير ، وتفكير سابق التجهيز.

والفن مرآة لهذه الأزمة . فالفن القصصـى المكتوب والمعروض ، واجه قيود السيـاسة ، التـى فـرضـت عليه المحظـور والمسمـوح . ومـن خلال إطـلاق مساحات للمسموح ، وإظلام وإغلاق مساحات أخرى ، اتجه الفن فى ناحية دون غيرها . فغلـب مثلاً الفـن السياسـى الساخـر ، الذى هـو تنفيس عـن مشـاعر الغضـب ، تفيـد الحاكم ، وتـزيل مـوجـات الغضب ، أو تحد مـن غليانها . ولكـن كلما اتجه الفن إلى النقـد السياسـى العميق اقترب مـن منطقة المحظـورات . ويبقـى الفن تعبيراً حـراً عـن الالتـزام بالخطـوط الحمـراء ، أو الامتناع عن التعبير ، تلك هى حدود الاختيار .

ولكن الأكثـر خطورة مـن ذلك أن الفـن تعرض لعمليـة توجيـه سياسـى مباشر، وهـى عمل يجعـل الفن يموت ويحتضر . وهـى ظاهـرة تبدأ بـالتحيز السياسـى الذى يجعـل المبدع لايعبر عن صـورة المجتمع ويجسمهـا ، بل يعبر عنها مـن خلال التزامه بتـأييد طرح سياسـى دون الآخر ، وهو ما يجعـل الفن عاجـزا عن كشف بعض الحقـائق والوقائع التـى لاتخدم توجها سياسيـا ما . وتنتهى هذه الظاهرة ، عند حد الحظر الحقيقـى، عندما يقدم الفن من خلال تـوجهـات سيـاسيـة ، وتعليمات عليـا ، ومعلـومـات أمنيـة . وتصبـح وظيفـة

الفنان، تقديم عمل فنى « تفصيل » ، حسب متطلبات وأغراض صاحب القرار . وبهذا أصبح العمل الفنى ، يرسم صورة للواقع ، ليست هى صورته ، بل هى صورة الواقع الذى يريد صاحب القرار ، فرضه على المشاهدين .

وتلك بالفعل عملية تتجاوز المعقول ، وتعبر عن إحساس بالطغيان منقطع النظير . فالفن فى المقام الأول ، إحدى أدوات المجتمع حتى يعرف نفسه ، وهو أيضا إحدى أدوات تجسيد أحلام الأمة ، وتصور مستقبلها . الفن إذن ، لصيق الصلة بوظيفة اجتماعية هامة وهى التعبير عن الواقع وتجاوزه فى آن واحد . وبهذا يصبح الفن إحدى أدوات إنهاض وجدان الأمة ، لتكتشف واقعها وتتجاوزه .

ولكن الفن الموجه ، أصبح أداة أخرى ، شديدة الخطورة ، فهو فن يفرض صورا عن المجتمع تهبط عليه من أعلى سلم الحكم. بهذا فهو لا يخرج من المجتمع ، ولا يعبر عنه ، بل « يهبط » على المجتمع ، ليفرض عليه صورة مشوهة ، فيها بعض منه وبعض غريب عليه . وكأن أجهزة الإعلام ، تعيد صياغة وقائع الحياة ، وتصنع مجتمعا وهميا ، وتخلق واقعا على قد احتياجها . وهذه الصورة الوهمية تستخدم بعد ذلك لتبرير سياسات الحكم ، وضمان استمراريته ، وإعطائه مزيداً من القدرة على إحكام قبضته على المجتمع . وبهذا يقدم هذا الفن المغرض صورة للمجتمع ، تجعله يخطىء فى إدراك ذاته ، ويبتعد عن واقعه . وكذلك تقدم له صورة عن مستقبل لا يحلم به . وبهذا يصادر الفن الموجه ، أحلام الأمة ، ويفرض عليها خيالا مشوها ، ويساعد يد السلطة حتى تمتد داخل أطياف الحلم ، ورموز الخيال .

ولكن الفن الموجه ، ليس فقط تضليلا ، بل هو أيضا عبث . فالواقع ليس ملكا لأحد ، ومن يتصور أنه يملك وحده حق تصوير الواقع ، هو

عابث بلا شك . فالواقع وقع لا محال ، وشاهده البعض ، كثرة أم قلة ، فثبت فى ذهن نفر من الناس ، وأصبح وعياً ، يمكن أن ينتقل من فرد لآخر ، ليدخل ضمن مفردات الوعى الجمعى .

لذلك فالفن الموجه يرسم صورة لواقع ، مفارقة بقدر أو آخر ، لما حدث بالفعل . والصورة التى يروج لها الإعلام الحاكم ، تصل إلى عدد كبير من البشر . وبعض المتلقين ، ليس لديهم علم عما « وقع بالفعل » ، ولذلك فإن الصورة الإعلامية ، تصبح « الواقع الوحيد » فى أذهانهم . وبعض آخر من المتلقين ، شاهدوا ما « وقع بالفعل » أو شاركوا فيه ، أو هم جزء منه . لذلك فإن الصورة الإعلامية المطروحة عليهم ، لن يكون لها أى تأثير ، بل ستصبح دليلاً حياً على التضليل الإعلامى .

هكذا يتشكل الوعى الجمعى المشوه . فالبعض يعرف واقعا ، والآخرون يعرفون واقعا غيره ، وبين الفريقين ، درجات من المعرفة يختلط فيها الواقع المصنوع بالواقع المتحقق وذلك هو أكثر درجات التشوه التى يمكن أن تصيب وعى أمة . بل هى حالة يمكن أن تحطم الحاضر ، قدر تحطيمها للمستقبل . لأن تباين الصور عبر شرائح المجتمع ، يعنى أن المعرفة الواقعية لم تعد واحدة ، ولم تعد مشتركة . ومن الطبيعى أن تختلف فئات المجتمع ، وشرائحه وجماعاته ، فى توجهاتها وأفكارها ومواقفها السياسية والاجتماعية ، ولكن ليس من الطبيعى ، أن يكون لدى كل فئة معرفة عن واقع الأمة ، فارقة تماماً لمعارف الفئات الأخرى ، وهو ما يخلق حالة من تشوه الوعى ، تجعل كل فريق يسير فى اتجاه مستقل تماماً عن الآخرين ، متصوراً واقعا قد لا يكون له وجود .

وما قيل عن الفن يقال أيضاً عن جميع أشكال الاتصال ، وكل عناصر الآلة الإعلامية . والتركيز على الفن ، بسبب تعبيره عن خيال الأمة ، وملكيته

لعالم الرمز والأسطورة، وتلك هى أخص خصوصيات الأمة . فالخيال مثل الحلم ملك صاحبه ، ويقع فى دائرة الخاص ، والأهلى ، والشعبى . الخيال ملك البشر أنفسهم ، لاحكامهم . وعندما يصبح الخيال أسيراً للحاكم ، والرمز رهيناً بالقرار السياسى ، عندئذ تصبح السلطة قد صادرت أحلام اليقظة ، وأحلام النوم .

وحتى نرصد حالة الوعى الراهنة ، علينا أن نتخيل دور الإعلام بكل وسائله وأجهزته ، أى عندما تتكامل تأثيرات المسلسل التلفزيونى ، والأخبار، والتحقيقات ، فى كل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة . وفى مقابل الصورة الإعلامية ، نجد فئات من المتلقين ، كما سبق أن أشرنا . ومن تفاعل المرسل والمتلقى ، تتكون ثلاثة أنماط :

١ ـ الوعى الموجه .

٢ ـ الوعى المشوه .

٣ ـ الوعى المستقل .

فالوعى الموجه ، يعبر عن وعى الفئة التى كونت معظم مدركاتها من خلال وسائل الإعلام ذات الرسائل المقصودة والمفارقة للواقع . وهى غالبا الفئة التى تعانى من قصور فى قدرتها على معرفة الواقع مباشرة ، وليس لديها أدواتها للوصول إلى المعلومات فى صورتها الخام . ولذلك تصبح هذه الفئة أسيرة ما يفرض عليها من النخب الحاكمة .

والوعى المشوه ، هو الحالة الوسط بين المفروض والحادث فى عالم الواقع والمدركات . وهو وعى يتكون لدى الفئة التى تعرف عن الواقع قدرا لا بأس به، معرفة خاصة من تجاربها وخبراتها ، وحياتها اليومية ، ولكنها فى نفس

الوقت تتعرض للصورة الإعلامية الموجهة ، وتتأثر بها بقدر أو آخر . وبهذا يصبح لديها نوعان من المعرفة ، نوع خام مستمد من الواقع ، ونوع سابق التجهيز مستمد من وسائل الإعلام . ومن خلال هذا التباين المعرفى ، يتكون الوعى المشوه ، أو الوعى المتردد ، ونقصد به ذلك الإدراك الذى يقف عند حدود الاختلاط والإبهام ، ويصعب أن يصل إلى مرحلة اليقين ، أو هو ذلك الإدراك ، الذى يصدق الشىء وضده ، ويكون منهما صورة تبدو مكتملة رغم أنها متناقضة .

أما الوعى المستقل ، فهو حالة تعتمد تماماً على الواقع كما حدث ، حيث يكون للواقع المعيش لدى فئة ما ، قوة تفوق قوة أى صور مفروضة ، حيث تكون المعايشة المباشرة ، هى أداة المعرفة . وتظهر هذه الحالة ، عندما يعرض الإعلام صورا عن موضوعات عايشتها فئة من المجتمع ، وكانت جزءاً منها . لذلك فإن الصورة المفروضة أيا كانت درجة إتقانها ، لايمكن أن تلغى ذاكرة الإنسان عما عاشه بنفسه . وعندما يملك الإنسان الوقائع نفسها ، ويكون شاهداً عليها ، أو مشاركاً فيها ، لن ينفع معه أى محاولات للتضليل .

نقصد مما سبق التأكيد على قضية الإعلام الموجه ، خاصة فى القضايا التى تمس صميم واقع الأمة ، وجوهر كيانها . ففى القضايا التى تحاول فيها الجماعات الحاكمة فرض صورة غير واقعية ، والسيطرة على وعى الجماهير ، فى هذه القضايا يتكون الوعى بأشكاله الثلاثة السابقة . فكلما حاول الإعلام طرح صور مزيفة ، كلما تطور الوعى الجمعى للأمة ، فى اتجاهات مختلفة ومتعارضة ، أى كلما زادت حدة الانقسام والصراع فى وعى الأمة . وتلك هى القضية .

إن تعدد الوعى ، فيما يخص الواقع والوقائع ، يعنى ضمناً تعدد « الواقع »

نفسه وبالتالى فإن كل جماعة يصبح لها « وعى » مرتبط « بواقع » ، منفصل تماماً عن ما لدى الجماعات الأخرى . وبهذا ، فإن الاختلاف بين جماعة وأخرى ، لن يكون فى الموقف السياسى ، تجاه « الواقع » بل سيكون اختلافا فى الموقف والواقع معاً . ويصبح لكل جماعة أو شريحة ، عالمها الخاص ، الذى تتصوره ، ثم تحاول أن تحافظ عليه ، أو تحاول تغييره . فما هى محصلة تعدد الوعى والواقع والموقف ؟!

إن أى أمة تقوم من خلال المشترك بين أبنائها ، والمشترك لا ينفى التعدد . فهناك أسس مشتركة ، ثم تباينات وتنوع . والاشتراك فى الأصول ، والتباين فى الفروع ، هما ما يخلقان الأمة . ونعتقد أن الوعى الوقائعى ، فى حده المادى الأدنى ، هو ضمن الأصول . بمعنى أن الأحداث فى صورتها الأولية ، كمادة خام ، هى ضمن الأدوات التى تخلق مساحة للمشترك فى الوعى . ومن جملة الوقائع ، التى تخبرنا عن الماضى والحاضر ، يتشكل وعى جمعى ، من خلال الاتفاق على الحد الأدنى من المعلومات . وهذا الوعى الجمعى ، من شروط توحد الأمة . والوعى الجمعى ، بهذا المعنى ، ليس أحادية الفكر ، بل هو قدر من المعرفة المشتركة القريبة من الحقيقة ، حيث تمثل هذه المعرفة الأساس ، الذى يبنى عليه الوعى السياسى ، والموقف السياسى ، لكل جماعة أو شريحة على حدة . فالاتفاق على عناصر الواقع ، لايعنى الاتفاق على تقييمها أو على اتخاذ موقف منها ، بل إن كل فئة أو تيار ، تحدد موقفها ورأيها ، فيظهر التنوع .

نقصد بذلك أن « الوقائع » من الأصول ، والموقف منها أو الرأى تجاهها من الفروع . فالإدراك يتشكل من خلال وقائع وموقف المدرك منها . ولذلك تصبح الوقائع هى أصول الوعى الجمعى ، والانطباع الوجدانى والموقف

الفكـرى والسياسـى منهـا ، هـو من فـروع الـوعـى الجمعى ، وبهذا يتحقـق المشترك ، دون أن يجور على التعددية .

بهذا المعنـى ، علينا أن نتصـور حالـة انفصـال الوعـى داخل المجتمـع ، بـوصفها معبرة عـن تمزق الأمـة ، وتفكيك أسـس وعيهـا ، وبـالتالى تفكيـك ثقافتها . وإذا كـان من الطبيعى ، أن تضم الأمـة ثقافات فرعيـة ، فإن ذلك يكسبها ثراء وتنوعـا ، مادام هناك ثقافة أساسية مشتركـة ، تمثل الجامع المعرفى للأمة ، ولكن عندما تبزغ ثقافـات فرعية ، ليس لها أسس مشتركة ، فإن ذلك يفكك وحدة الأمة .

والوعـى بالـواقع ، أسـاس مهم لأى بنـاء معرفى ، فـالإدراك عملية أوليـة لتشكيل المعارف ، ومن خلال تكوين تصور عن الواقع ، تتحدد الانطباعات والتفضيلات ثـم المواقف : معنى ذلك أن الاختـلاف حول الوقائع الأسـاسية المحـددة للظواهـر الهامـة فى المجتمع ، وقضـاياه المحـوريـة ، يؤدى إلى بنـاء تصورات معـرفية منفصلة تماماً عـن بعضها ، مما يساعـد على نزع المشترك بين الثقافات السائدة فى داخل الأمة .

ويصبح انقسام الوعى ، هو أسـاس لانقسام الأمة معرفياً ، وبهذا يتحقق التفكيـك ، ومنـه يحدث التبـاعـد بين جماعة وأخـرى ، والـذى يبـدأ بشكـل إدراكى ، ثـم معـرفى ، ثم يتحول إلى تباعد فى المواقف السيـاسية والاجتماعية . وإذا كان وعى الأمة يبنى على أسس متعارضـة ومشوهة ، فإن مواقف جماعاتها ستكون أيضاً متعارضة ومشوهة . فـالتعارض المعرفى ، بكل تصوراته ، يؤدى فى النهاية إلى تعـارض المصالح ، من حيـث فهمنا وتحديدنا لها ، ومـن حيث الأساليب المختارة لتحقيق هذه المصالح .

مما سبق ، نتصور أن صنـاعة الوعى الموجه ، هى صناعـة لأكثر من وعى

يختلف كل منها حول « الواقع » ، وكأن « الواقع » ليس حدثاً مادياً . ويصبح هناك أكثر من واقع . ويزداد الأمر تعقيداً ، مع تنوع وسائل الإعلام ، من إعلام رسمى ، إلى غير رسمى ، إلى معارض . وبهذا نصل إلى صورة معقدة ، ولكن عمادها الوعى الموجه والمشوه والمستقل . وتمزق الوعى ، الذى يؤدى إلى تمزيق الواقع ، وبث الوهم ، هو ما يؤدى فى النهاية ، إلى وعى متصارع ومصالح متصارعة .

فالإعلام الموجه للأغراض السياسية ، شوه ـ فى تصورنا ـ المشترك الواقعى بين أبناء الأمة ، وجعلهم أعداء بعضهم البعض . ووضع بذلك أسسا قوية ، تزرع الفتنة داخل الأمة . فصناعة الوعى الزائف ، هى صناعة للفتنة .

وفى ربوع أمة العرب ، تم ضخ الوعى الزائف بكثافة بالغة ، مما أدى إلى تفكيك الأمة معرفيا ، وتعارض مصالحها ، لحد جعلها تقترب من الفتنة الكبرى ، فتشتعل النيران أحياناً ، وتخمد أحيانا ، وتبقى سحب الدخان الكثيف ، مبشرة بقرب توهج النيران . فلماذا حدث ذلك ؟! وماهى القضية التى فجرت محاولات تزييف الوعى ؟!

إن واقع الأمة يؤكد مركزية الصراع بين الوافد والموروث . وهو صراع ظهر منذ عدة عقود طويلة . وتعددت أطروحات التراث ، وأطروحات الوافد . ولكن مع اقتراب القرن العشرين من نهايته ، ازداد إيقاع المواجهة بشكل حاد ، ومع شدة الصراع ، ظهر بالتدريج الشعور بقرب المواجهة الحاسمة . وكلما زادت سخونة المواجهة زادت درجات العنف والعنف المضاد ، لتزيد من حدة الصراع ، حتى بات واضحاً أنه يقترب من صراع الحياة أو الموت .

فى هذا المناخ الملبد بالدماء ، دارت الآلة الإعلامية ، لتفرز عشرات من الصور المزيفة ، مستغلة الوقائع بشكل يشوهها ، معلنة عن وعى موجه ،

يفرض نفسه على الجميع . وتم بث عشرات من الشعارات ، تحت مظلة محاربة الإرهاب . وتجمعت الرسائل الإعلامية ، الخبرية ، والفنية ، لترسم للواقع صورة مزيفة ، تتميز بالقتامة ، وتثير النفور . صورة الهدف منها ، لا نقل الوقائع ، بل تحويلها إلى رمز أسطورى للشر . وفى مقابل ذلك ، تم بث صور وردية ، لشعارات وافدة ، حتى تصبح هذه الشعارات ، هى البديل الوحيد . ويوضع وعى المتلقى ، بين صورة سلبية تماماً ، تمس فى الواقع تراثه ، وصورة وردية تماماً ، تأتى من قيم مجتمع آخر .

إن الزيف الإعلامى ، اختزل التراث بكل تاريخه ، واختزل الحركات الإسلامية بكل إنجازاتها ، إلى السلبية المنتسبة للتراث ، وهى العنف . فالعنف قد ظهر دفاعاً عن الذات ، فانتمى للتراث ، وأصبح إحدى سلبيات إعادة بناء الذات . وعندما اختزل كيان المجتمع ورموزه وأحلامه ، فى العنف ، واختزل الآخر الغربى وهيمنته واستغلاله ، فى شعارات براقة ، ثم تم ضخ هذه التصورات بكثافة هائلة ، عندئذ ظهر الوعى الزائف ، وانقسم وعى الأمة ، وتعارضت مصالحها .

إنها الفتنة الكبرى ، بلا شك ، تلك التى تفرزها أجهزة الإعلام الموجه ، عندما تخلق وعيا زائفا ، حتى تدير معاركها السياسية . فالنتجية النهائية ، هى هذا المناخ الراهن ، المعبأ ببذور الفتنة ، فهناك جماعات تمثلت الوعى الموجه المفروض ، وأصبحت تجد مصلحتها فى الخلاص من التراث ، والحركات الإسلامية ، وبالتالى أصبحت مصالحها رهنا بما يمكن تحقيقه من التحاق بالغرب ، وسيادة للإرادة الأمريكية الإسرائيلية المشتركة . وهناك جماعات ترفض الوعى الموجه ، وتحركها رؤيتها المباشرة للوقائع ، وبالتالى ترى أن الآلة الإعلامية ، والجماعات المصدقة لها ، بمثابة أعداء لتراث هذه الأمة . وبالطبع

فإن بين الفـريقين درجات ، من التشـوه ، والحيرة ، والقلق ، درجـات تتميز بحالة من التردد ، تدفع للسلبية والصمت .

إن صناع الـوعى الزائف ، هـم صناع الفتنة ، فالـوعى الزائف لـن يسود فيغير الواقع الذى رسم له صورة مزيفة ، فالـواقع الحقيقى يحمل قوته من كونه حادثا بالفعل ، وبالتالى فالواقع يفرز وعيه باستمرار ، ودون انقطاع .

أســــطورة الإرهـــاب

فى مواجهة ظاهرة العنف المتزايـد ، تضخمت الحملة الإعلامية تحت شعار « محاربة الإرهـاب » . وهى حملـة تستمد مبرراتها مـن أهمية مـواجهة العنـف وسفك الـدماء . ولكـن عناصر الحملة ومكـوناتها ، تشير بشكـل واضح إلى أبعاد كثيرة أخرى . فشعار « محاربة الإرهاب » أصبح شعاراً عاماً يشمل الكثير من الظواهر معاً ، ومنها بالطبع ظاهرة العنف . ورغم أن الشعار ليس دقيقاً ، إلا أنه يستخدم لبث رسالة إعلاميـة تتجاوز العنف ، لتصبح حربا على معان وعناصر كثيرة . والحملة فى النهاية ، هى حرب موجهة ضد كل فصائل التيار الإسلامى ، بـل هى أيضاً ضد المشروع الحضارى الإسلامـى ، ومختلف رموزه ومفاهيمه ، ومن هنا تتشكل الأسطورة ، التى تبثها وسائل الإعلام ، فى محاولة لتشكيل وعى طارد لجملة المنظومات التراثية .

وما تبثه وسائل الإعلام هو بالفعـل « أسطورة » ، فالإرهاب فى حد ذاته ، يعطى معنى مختلفا عن الواقع . حيـث يشير الإرهاب إلى جماعة مرتزقة ، تقوم بزعزعة الاستقرار والأمن لحساب جهة مـا ، وبهذا يتم تفريغ ظاهرة العنف من محتواهـا وأسبابها . وتتحـول إلى فعل دموى مجرد مـن أى ملابسـات . فيسهل مواجهة الظاهرة ، بفعل دموى آخـر تحت مظلة القانون . وتجريد الظاهرة بهذا الشكل ، يبرر القضاء عليها بأى أسلوب كان ، ويعفى الإعلام والحكومة من مواجهة الظاهرة على حقيقتها .

فظـاهرة العنـف ، ليســت غريبـة على المجتمعــات البشرية ، فى مختلـف عصورهـا . وهى ليســت ظاهرة الإرهــاب ، التى تعنــى مثلاً أن دولـة تعادى أخرى ، فتبث بـداخلها جماعات تقوم بـأعمال دموية ، لهز استقرار الـدولة . ففى هذه الحالة تكون الجماعات بمثابة قاتـل مأجور ، ليس له علاقة بالصراع بين الدولتين ، وليس له هدف إلا الكســب المالى فقط . ولهذا يمكن أن ينتقل القاتل المأجور من معسكر إلى آخر ، بمعنى أنه يمكن إعادة تجنيده من الدولة المعتدى عليها ، ضد الدولة المعتدية . . وهكذا .

ولكن ظاهرة العنف أمر آخر ، فالعنف هو سلوك متطرف غير عادى وغير شائع ، تلجأ له جماعة أو جماعات ، تعبيراً عن موقفها الاجتماعى والسياسى . والعنـف بهذا المعنى ، هـو تمرد اجتماعى وسيـاسى . ولـذلك ، فـإن ظاهـرة العنف لا تفهـم إلا من خلال أسبـابها ومراميها . فـأسبابها هى المنـاخ البيئى الذى يفرز العنف ، ومراميها هى تلـك العناصر المستهدفة من العنف ، وهى فى ذهن من يرتكب العنف أسباب البيئة التى يرفضها .

وهذا التناول ينبع أساساً من اقتناعــات علمية راسخة ، بأن العنف ظاهرة اجتماعية وجزء من إفرازات التفاعـل الاجتماعى ، المعبر عن ما يعتمر اللحظة الراهنـة . ونبادر ، قبل التعمـق فى القضية ، بأن هـذه النظرة لاتعنى إطـلاقاً تبريراً للعنف . فالفعل العنيف ، هو اعتـداء على آخرين ، ويقع تحت طائلة القانـون . لذلك فإن المواجهـة القانونيـة لكل من يخرج على القانـون أمر لازم وضرورى . ولكن النظرة العلمية ، لها دور آخر . فمواجهة ظاهرة العنف ، لها شق أمنى وقانونى ، تجاه أحداث العنف نفسهـا ومرتكبيها ، أما ظاهرة العنف بكل أبعادها ، فتلك قضية اجتماعية وسياسية .

لذلك فالتناول العلمى للظاهرة ، يهدف أساساً للوقاية . فتفجر العنف ،

هو عرض لمرض ، أى أنـه علامة على وجود أزمـات حادة من شأنها أن تـدفع البعض لاتخاذ أساليب فى مواجهة الحياة ، غير شائعة ولا عادية ، بل متطرفة . والفهم السليم للظاهرة ، يدفعنا للبحث عن المناخ المفرز للعنف ، باعتبار أن تغيير هـذا المناخ ، هـو السبيـل الـوحيد لإيقـاف ظـاهـرة العنف والحد مـن انتشارها .

أما الجانب الأمنى والقانونى ، فهو ليـس مواجهة لظاهرة العنف ، بل هو فقط مـواجهة لمرتكب العمـل العنيف . فالـوقائع تـؤكد أن ظاهـرة العنف لا تتعلق بمجموعة من الأفراد ، بل هى ظـاهرة جيلية ، تزداد حدتها بدفع دماء جديدة لها من الأجيال الشابة . معنى هذا ، أن استمرار المناخ المفرز للعنف ، هو القضيـة الرئيسيـة التى يجب أن نتعـامل معهـا ، لأن استمرار المنـاخ يعنى مزيداً من جماعات العنف ، وكأن استمرارهـا مرتبط مباشرة بالمواليد ، ودخول أجيال جديدة فى مرحلة الشباب ، مرحلة التساؤل عن معنى الحياة .

إذا قارنا إذن ، بين أسطـورة الإرهاب ، وظاهرة العنف ، سنكتشـف فروقا جوهرية . فالأسطورة تدور حول جماعة شر ، وقتلة مأجورين ، وقلة منحرفة ، فيصبح الحل الأمنـى كافيا للقضاء على هـذه الأسطورة . أما ظاهـرة العنف ، فتدفع كـل قوى المجتمع لمواجهة هـذه الظاهرة . ولكن الأسطـورة تقدم الحل السهـل ، والانتصـار الـوهمى ، أمـا « الظاهـرة » فتـدفـع الجميـع إلى تقييـم مواقفهم ، وتلك هى المشكلة .

لأن معـالجة ظـاهرة العنـف ، لـن تحدث إلا مـن خلال اكتشـاف منـاخ العنف ، ثم تغييره ، لـذلك فكثير من القوى تبتعـد عن هذه المعالجة ، خـوفاً من أن تطـولها رياح التغيير ، عنـدما تكتشف أنها تشـارك بقسط مـا فى خلق ظاهـرة العنف . فمعـالجة ظاهـرة العنف ، لـن تتحقق إلا مـن خلال النقـد

الذاتى ، الذى يدفع المجتمع ممثلاً فى قادته ونخبه ، لتغيير ما بنفسه ، وهو ما يدفع الكثيرين للهرب من مفهوم « الظاهرة» إلى « الأسطورة » .

وإذا كانت « الأسطورة » هى هروب من الظاهرة ، فإن الأسطورة هى غطاء لحرب أخرى لا علاقة لها بالعنف وأفعاله . فتحت مظلة الحرب ضد الإرهاب ، استباح الكثيرون لأنفسهم ، خاصة بعض وسائل الإعلام وبعض رموز الثقافة ، أن يشنوا حربا لا هوادة فيها تجاه كل ما يرتبط بالحركة الإسلامية ، وأيضا ما يرتبط بالخصوصية الحضارية .

فالهجوم على « الإرهاب » ، تبعه هجوم على ما سمى بخلط الأوراق بين الدين والدنيا وتحت مظلة محاربة الكهنوت السياسى ، والإسلام منه براء ، افترض ضمنا أن كل ما يربط الدين بالدنيا هو محاولة البعض للسيطرة على الدنيا من خلال سلطة دينية يحوزها البعض بدلاً من الكل . وحتى لا نفترض أن الأسطورة هى الخرافة بعينها ، نفرض أن ممارسات البعض قد أعطت انطباعاً بذلك ، ولكن الظاهرة الإسلامية فى مجملها لا تعرف الكهنوت السياسى والسلطة الدينية . والأهم من ذلك ، أن العلاقة بين الدين والدنيا ، هى أصل من أصولنا ، لا الأصول الدينية فقط ، بل الأصول الحضارية أيضا .

فالنموذج العربى الإسلامى ، نموذج الوسط ، قائم على ارتباط الدين بالدنيا ، ذلك الارتباط المعتمد على أن كليهما يعبر عن غايات سامية نهائية واحدة ، وأن كليهما يستند إلى مرجعية قيمية واحدة . لذلك فالتناقض بينهما غير وارد ، كذلك فإن اختلاف مسار الدين عن الدنيا غير وارد أيضاً ، لأن الدين (بمعنى العقائد والعبادات . . وغيرها) والدنيا (بمعنى السلوك اليومى والاجتماعى والسياسى . . الخ) كليهما يتبعان نفس المنظومة القيمية ، أى أنهما يسيران طبقاً لنفس المعايير والقواعد لهذا فإن الإفساد فى الدين ، يفسد

الدنيا ، وإفساد الدنيا إفساد فى الدين ، وصلاح الحال للدين والدنيا معاً .

فإذا تصور البعض ، أن أسطورة الإرهاب يمكن أن تكون الخرافة التى نحولها لحقيقة ، فنتصور أن القضاء على الإرهاب ، لايتم إلا بفصل الدين عن الدنيا ، فهذا التصور ليس فقط خطأ ، بل أيضا تجاوز للواقع تماماً ، وإغراق فى بحر الأسطورة الخرافية . ففصل الدين عن الدنيا ، يعنى أن لكل منهما أهدافه وقيمه ومساره المستقل ، وعندما يتحقق ذلك ، فى مجتمع عربى إسلامى ، فسوف يؤدى إلى إفساد الحياتين الدينية والدنيوية ، كما سيؤدى إلى خلق تعارض واختلاف بين نظام الدين والدنيا . وتفكيك نظام الحياة ، إلى نظام دينى وآخر دنيوى ، لا علاقة بينهما ، يؤدى فى مناخنا إلى صراع وفتنة ، نعتقد أنها تلك الفتنة التى زرعها الغرب فى ربوع أوطاننا ، فكانت العنصر الفاعل فى صناعة مناخ العنف .

ومعنى ذلك ، أن عزل الدين عن مجال الدنيا ، على الأرجح ، هو أحد أسباب ظاهرة العنف ، ولكن أسطورة الإرهاب ، تعمل على تحقيق المزيد من عزل الدين عن الدنيا ، وكأن فى ذلك سيطرة على الإرهاب ، وهو فى الحقيقة إشعال مستمر لنيران العنف ، وتأكيد على استمرار المناخ الذى أفرز ظاهرة العنف .

والأسطورة لا تتوقف عند هذا الحد ، بل تتجاوزه ، إلى معان أخرى . ففى الخطاب الموجه ضد الإرهاب ، اتهمت كل فصائل الإسلام السياسى ، بأنها تمارس السياسة تحت عباءة الدين . واتهم الإخوان المسلمون على سبيل المثال بأنهم يستغلون الدين فى الانتخابات البرلمانية . والحقيقة أن هذا الاتهام ، ينتج عن فكرة الفصل بين الدين والدنيا ، ويضيف لها ضمنيا معنى آخر ، وهو

المقابلة بين الدين بنقائه ، والسياسة بنفعيتها . ولذلك اتهم كل نشطاء الحركة الإسلامية ، بأنهم طلاب سلطة ، ولذلك فالدين منهم براء ، وكأن طالب السلطة بعيد عن الدين . وبمعنى آخر ، يصبح طالب السلطة المعارض متهما بالنفعية فى حين أن حائز السلطة غير متهم .

والأمر فى صلبه ليس خلطاً للأوراق من قبل الحركات الإسلامية ، بل تجاهل كامل لطبيعة الحضارة الإسلامية ، ومضمونها ، وكذلك تجاهل لجملة الرموز التراثية ، ولغتها الخاصة . فالعلاقة بين الدين والسياسة علاقة قائمة عبر كل تاريخنا ، منذ الدولة الفرعونية . والسياسة تمارس عندما تثبت أنها لاتعارض الدين بل تحققه . وتصبح المرجعية الدينية ، هى معيار الحكم على الفعل السياسى . لذلك ، فإن الدين عندما ينظم ويوجه السياسى ، يحقق الدور المطلوب منه ، ولكن عندما يستخدم الدين لتبرير سياسات تتعارض مع قيمنا ، وقيم الدين نفسه ، هنا تظهر الشبهات الحقيقية . فإذا كانت الحركة الإسلامية ، تحاول إعادة تنظيم الحياة ، بفعل سياسى ، يعيد انتماء نظامنا إلى مرجعية القيم الدينية ، فهذا ليس استغلالً للدين ، بل إفعالاً لوظيفة الدين ، باعتباره منظم الحياة على معيار القيم السامية .

على الجانب الآخر ، فإن توظيف الدين من قبل الحكومة ، بوصفه أداة لتبرير سياسات الحكومة ، وإكسابها إطاراً شرعياً ، هو ما يعد بحق استغلالاً للدين ، لا فى السياسة والسلطة فقط ، بل الأهم أنه استغلال للدين لفرض قيم معادية لقيم الدين والحضارة معاً .

أما السعى للسلطة ، فهو ليس اتهاماً ، إلا أذا حددنا المعيار . فكل من يحمل رسالة ، أو مشروعا ، أو فكرة ويحاول أن يحققها من خلال قيامه بدور سياسى ، لا يعد متهماً ، والأهم أن كل من يحمل هموم وأحلام الأمة معه ،

ويلتزم بها وهـو فى مقعد الحكم ، هـو رمز مـن رموز الوطنيـة . والمحك ، فى الالتزام أو التفريـط ، تجاه الأمة ، كذلك فيما إذا كانت السلطـة وسيلة لخدمة المجتمع أو وسيلة للمصـالح الشخصية الضيقة ؛ رهن بحكـم الأمة نفسها ، ذلك الحكم الـذى يسطر فى صفحات التاريخ ، ليسجل الحقيقـة ، رغم كل الأساطير .

الإرهاب والحضارة الإسلامية

فرضت ظاهرة العنف الإسلامى ، على مائدة البحث ، فى الداخل والخارج. وأصبح الجدل يطول مختلف جوانب القضية ، الحقيقى منها والوهمى. والعنف تحت المظلة الإسلامية يحتاج لوقفة موضوعية . فالإسلام كدين ، وكحضارة ، لايدعو للعنف . ولكن خروج موجات العنف تحت شعارات إسلامية ، له دلالته الخاصة فى فهم الظاهرة . فالعنف مولد من خلال الإحساس بالانكسار ، وضياع الهوية ، والابتعاد عن التراث ، وضياع القيم الأصيلة . هذه الأزمة التى تعصر الذات العربية والإسلامية ، دفعت بعض الشباب لموجة من العنف ، تحت تصور أن العنف وسيلة لإعادة الأمة إلى تراثها وقيمها ومبادئها . ولذلك خرج العنف رافعا شعارات إسلامية ، دينية أكثر منها حضارية . فحركات العنف ، خرجت لتعبر عن موقف رافض لتنحى « المقدس » من حياتنا ، فأعلنت أن خروجها على الأوضاع ، حماية لهذا « المقدس » ، الذى تتصور أنه يتعرض لحرب شرسة هدفها النيل من مقدسات الأمة . ومن خلال هذا التصور ، تصور البعض أن العنف ، وبالتالى الانقلاب المسلح ، هو الوسيلة الوحيدة لإعادة « المقدس » إلى مكانته ، فخرج العنف رافعاً شعار الجهاد فى سبيل العقيدة ، ولهذا كانت ظاهرة العنف إسلامية فى شعاراتها .

ولكن فى مواجهة العنف ، حدث خلط للأوراق ، فى كثير من الأحيان هو

خلط مقصود . فتم تحويل « الإسلامى » إلى عنف ، و « العنف » إلى إسلامى . ومن خلال تفكيك مكونات الظاهرة ، يتم سحب العديد من المفاهيم لتوضع فى دائرة الاتهام ، ويصبح التخلص من العنف ، هو تخلص من ما هو « إسلامى » .

والواقع أن الإعلام الغربى ، هو صاحب المبادرة فى ذلك . فقد صور الإعلام الغربى ، الإسلام والمسلمين ، والحضارة الإسلامية ، باعتبارها عناصر مكونة للعنف فتم الربط بين الإسلام والإرهاب ، لتتكون أسطورة الإرهابى المسلم صاحب اللحية والقنبلة والسلاح . حتى يتحول هذا الإرهابى إلى رمز يتم تجسيده بوصفه خطراً على الغرب ، والحضارة الغربية ، ومن ثم الإنسانية جمعاء . وهكذا تحشد القوى فى مواجهة هذا الرمز ، وتلك الأسطورة . لتدور المعركة الحقيقية ، لا بين سلاح وسلاح ، ولكن بين وسائل الإعلام ، وعقول الشعوب . فزرع هذا النموذج الأسطورى ، فى حد ذاته ضربة حقيقية لكيان الأمتين العربية والإسلامية ، لأنه حشد للشعوب فى مواجهة أمتنا ، مما يجعل الشعوب والدول ، مدفوعة نحو سحق أمتنا وحضارتنا .

والحقيقة أن ما يحدث هو حرب صليبية جديدة ، ولكن ليس تحت شعارات الصليب ، بل تحت شعارات العلمانية . فوسائل الإعلام الغربى ، ومن خلال تشويهها لكل ما هو إسلامى وعربى ، تضرب بذلك النموذج الحضارى الوسطى ، بوصفه نموذجا مغايرا للحضارة الغربية . لتعيد بذلك تصورات الخوف تجاه المنطقتين العربية والإسلامية ، وهزائم الصليبيين فى الضمير الغربى ، وتشعل مخاوفهم التاريخية من الإمبراطورية العثمانية . وبذلك يتم تهيئة المناخ بين الشعوب الغربية ، لأى مواجهة محتملة مع العالمين العربى والإسلامى .

وتلك الحرب العلمانية الباردة ، على غرار الحرب الباردة بين الرأسمالية والشيوعية ، تمهد جيوشها المدنية قبل العسكرية ، للسيطرة على هذا « الشرق» الإرهابى . واستغلال أحداث العنف ، بوصفها سبباً لطرح هذه الصورة الإعلامية المضللة ، ليس إلا خبثاً إعلامياً . والحقيقة أنه بوجود أو عدم وجود ظاهرة العنف الإسلامى ، فإن الحرب العلمانية الإعلامية ، كانت ستأخذ طريقها تحت أى مبررات أخرى . ولا ننسى أن الإعلام الغربى ، كان ومازال وسيلة فعالة فى تصوير حضارتنا ، بالتخلف والبدائية وغيرهما من النعوت .

واتهام الغرب بأنه يحاربنا عن قصد ، ليس بدون مبرر ، بل إن الأجندة الغربية ، المفروضة على العالم ، بقوة صندوق النقد أولاً ، ثم بقوة مبدأ حق التدخل فى الشئون الداخلية ثانياً ، تؤكد أن سبق الإصرار والترصد ، متكامل الأركان فى الحرب العلمانية الغربية . فالتوجه الغربى ، يؤكد على أهمية توحيد العالم حضارياً وقيمياً وسلوكياً ، وهو ما يعنى أن وجود أى منظومة حضارية مخالفة ومغايرة ، يعد إفشالاً لفكرة الهيمنة الحضارية الغربية .

والأمر لايقتصر على أمة العرب والمسلمين ، فالدول الغربية تحاول فرض نموذج حياتها على الحضارات الآسيوية ، خاصة اليابان والنمور الآسيوية . ونلاحظ أيضاً أن تلك الدول تقاوم ، وتحاول الحفاظ على خصوصيتها الحضارية ، تلك الخصوصية التى صنعت من خلالها مجدها الاقتصادى . لكن الفرق بينهم وبيننا كبير ، وهو ليس فرقا بين الحضارات ، فلهم حضارتهم ، ولنا حضارتنا ، والفرق الحقيقى فى موقف الغرب منا ومنهم. فالدول الغربية تتساهل معهم ، باعتبارهم « الشرق الأقصى » ، الذى لن يؤثر عليهم ، حتى وإن تميز. لهذا ، سنجد المساعدات الغربية للتجارب الآسيوية ، والتعامل المرن نسبياً . وإن كانت الدول الغربية ، فى النهاية تسمح بقدر من حرية الحركة ، مع تأكيدها ضمناً أن أى وضع نهائى لايجب أن يكون إلا التحاقا بالغرب .

أما نحن ، فى الشرق الأوسط كما يطلقون علينـا ، أو فى قلب العالم ووسطه كما نرى أنفسنا ، فنمثل بالنسبة للغـرب منطقة لايقبل تجاهها إلا النفوذ المباشر السافر . ومن خـلال الكيان الصهيونى وبسببه فى نفس الوقـت ، فإن موقف الغرب يزداد تمسكاً بأهمية الهيمنة الشاملة .

لهذا نـرى أن أسطـورة « الإرهـاب والإسـلام » التـى يـروج لها الإعـلام الغربى ،هـى جزء من حرب شـاملة موجهة تجاه الحضـارة الإسلامية ، الهدف منها إبادة هـذه الحضارة ، وتحويل شعوبها إلى نمـوذج حياتى آخر . وهـو ما يجسد تفكيرا استعماريـا ماديا ، يتصـور الشعوب بـأنها مادة يمكن معـالجتها بالهندسة الوراثية ، لتخليق أنماط حضارية حسب الطلب .

وهذا عن الإعلام الغربى ، فماذا عـن إعلامنا المحلى والإقليمى ؟ الغريب أن الإعـلام العربـى يأخـذ من المواقـف ما يماثـل الإعلام الغـربى فى كثير مـن الأوجه . ويبقـى الفرق الظاهرى ، والضمنـى ، بين الإعلام الغربـى والإعلام العربـى ، فإن الأول يهدف لسحق الحضارة الإسـلامية ، أما الثانـى فيحارب الإرهاب فقط ، فهل هذا صحيح ؟!

إن وسـائل الإعلام ، تـؤكد مـوقفها المعـادى للإرهـاب ، تلك الأسطـورة الإعـلامية التـى لا نعـرف على وجه التحـديـد حـدودها . فكلما زادت حـدة المعركـة ، اتسعت الأسطورة لتشمـل قوى جـديدة ، وأفكارا وبـدائل أخرى . وتوسع مفهوم الإرهاب لحد لا نعرف على وجه الدقة حدوده ، مما يجعلنا نشك فيما يحدث .

ثم إن وسـائل الإعلام فى حربها على الإرهـاب ، أطلقت من خـلال بعض رموزها وكتابها مصطلح الإرهاب الفكرى ، ثـم وصفت بعض القوى والرموز، بأنهـم أكثر خطراً مـن الإرهاب نفسه . ثـم لقنتنا فى النهايـة ، درساً مستقبلياً ،

فى أهميـة الالتصاق بـالعلمانية وحقـوق الإنسان والـديمقراطيـة ، والبعد عـن السلطة الدينية والتخلف والظلامية . وعند هذا الحد ، لايمكننا أن نوقف سيل الشكوك والهواجس .

فـأسطورة الإرهـاب ، طالـت كل الحركـات الإسلاميـة ، حتى الحركـات السلمية ، ثم طالت الحركات الإسـلامية غير السياسية ، والتى تعمل فى مجال الدعوة ، باعتبارها مفرخة للإرهاب . ثم طالت الأسطورة ، العمل الاجتماعى الإسلامى ، بـاعتباره مشجعا ومحفزا على الانضمام للجماعـات « الإرهابية » . وأصبحت الأسطورة من الاتساع بحيث تشمل الكتاب والمفكرين والوعاظ من رموز الفكـر الإسلامـى . وتحول الجميع إلى خـانة واحـدة ، يظللها الإرهـاب والتطرف . وعندما نبحث عن الاعتدال ، نكتشف فى الواقع المأساة .

فـالاعتـدال يبـدأ مـن العلمانيـة ، وتظهر خطـوطـه عنـد أعتـاب السـادة الغربيين ، ويحصل على صـك شرعيته من التحاقه بقيـم الغرب ، واعتماده من وكلاء الغرب الثقافيين المسيطرين على قطاع عريض من الإعلام العربى .

فإذا كانت وسائل الإعلام الغربـى ، تشن حملة حربية علمانية على الحضارة الإسلامية ، فماذا تفعل وسائل الإعلام العـربى ، أو بعضها على الأقل ؟! قد نسارع بـاتهام أصحاب الحملـة الإعلاميـة العلمانية ، بـأنهم شركاء الغـرب فى الحرب الباردة ضد الحضـارة الإسلامية ، أو نرفع مـن درجة الاتهام ، ونعتبرها حرباً ضد الإسلام كدين ، ولكن إذا نحينـا كل الاتهامات جانبا ، وتركنا سوء القصد للإعـلام الغربى ، وافترضنا حسـن النية فى الإعلام العربـى العلمانى ، فـإننا لا يسعنـا إلا أن نـؤكد أنـه أيا كـانـت النيات ، فما يحدث الآن ، يمـزق الحضـارة الإسلاميـة ، بـاعتبارهـا وعياً جمعيـا تـاريخياً ، ويلحـق الأذى بها ، ويشـوههـا فى عيـون أمتهـا . إنها بـالفعـل مـذبحـة علمانيـة ، لأمـة العـرب والمسلمين ، بكل تاريخهم وتراثهم وقيمهم .

إن مشكلة الإعلام العلمانى العربى ، أنـه يضع القيم الغربية العلمانية ، فى مواجهة القيم العربية الإسلامية ، ويحمل الأخيرة كل تبعات العنف وأضراره . وأتصور لو أن الإعلام الغربى سمح لنفسـه بشىء من هذا القبيل ، لكان الآن يهاجم جملـة القيم الغـربية ، بـاعتبارها المسئـول الأول عن النـازية والفـاشية والنزعـات العنصرية . هى إذن عملية « جلـد الذات » وتمزيقها . ومـا يفعله الإعلام الآن ، ليس طريقاً للتقدم ، بل هو طـريق لتحطيم كل القوى المعنوية للأمـة . ولا أعتقد أن وجـود بعض الجماعـات التى تستخـدم العنف ، مبرر كاف للقضـاء على أمة ، وإبادة أبنـائها ، وتحت مظلـة كراهية تشنهـا وسائل الإعلام الغربى .

إن الحرب العلمانية الغـربية ، تجاه الحضـارة الإسلاميـة ، وجدت لنفسهـا وكلاء وحلفـاء بيننا . فأصبحنا نتلقـى الطعنة الغادرة بيد عـربية ، وبكلمات عربية .

الحضارة الإسلامية فى مواجهة العنف

نعتقد أنه تحت مظلة الحرب ضد الإرهاب ، بوصفها حرباً وطنية مبررة ، هناك الكثير من المشروعات التى يتم تمريرها . فالدعوة للديمقراطية الغربية ، والليبرالية كمنهج حياة ، وكذلك الانضمام إلى النظام العالمى ، والشرق أوسطية ، والتسوية السلمية أو الاستسلامية ، كلها أمور تجرى على قدم وساق، وتمرر تحت جنح الظلام ، دون أن تناقش أو تقيم . فالكل الآن محاصر بلعبة الإرهاب ، وأسطورة الخوف ، وخيال الدماء .

فحتى نستطيع مواجهة الإرهاب ، حسب الرأى السائد المفروض على الساحة ، علينا أن نتكتل جميعاً فى خندق واحد . ومن يرفض الدخول فى الخندق ، يحسب على معسكر الإرهاب ، ويتم اغتياله معنوياً على الأقل . وكأن الساحة منقسمة إلى معسكر الديمقراطية ، وهى الرشد والعقل والتقدم ، ومعسكر الإرهاب ، وهو التخلف والعنف والظلامية . ومن يخرج عن المعسكر الأول ، يصبح محسوباً على الثانى . فهل هذه صورة واقعية ؟

وعندما نحلل الصورة أكثر ، سنعرف أنها ليست بين الديمقراطية ، كأسطورة للخير ، والإرهاب ، كأسطورة للشر ، بل هى مقابلة يتم تمريرها ضمنياً فى جنح الظلام ، بين الحضارة الغربية ، والحضارة الإسلامية ، وتصبح الأولى أسطورة الخير وإلهه ، والثانية أسطورةالشر وإلهه . وبهذا يصبح علينا الاختيار بين الالتحاق بالحضارة الغربية ، المفضى للتبعية ،باعتباره حلاً

وحيداً للمستقبل ، أو نختار الحضارة العربية الإسلامية ، مما يؤدى إلى سيل الاتهامات التى تبدأ بتشجيع الإرهاب ، ولاتنتهى إلا بتهمة الإرهاب نفسها . وفى الاختيار الأول ، نواجه الانتحار الحضارى ، وفى الثانى نواجه الموت فى سبيل حضارتنا .

تلك صورة مرفوضة ، أو يجب علينا أن نرفضها . وقد يجادل البعض فى وجود هذه الصورة أصلاً ، ولكن الوقائع المعيشة فى أمتنا العربية ، تؤكد أن الصورة حقيقية ، وإن لم تكن نتاج مؤامرة مقصودة ، فهى نتاج تفاعلات اللحظة الراهنة ، بكل ملابساتها الخارجية والداخلية .

فمن جانب الدول الغربية ، نلاحظ هجومها على الحركات الإسلامية ، واتهامها جميعاً بالإرهاب . وفى نفس الوقت ، فإن الدول الغربية تفرض علينا أجندة تبدأ بالسياسى وتصل حتى قيم الحياة نفسها ، فى صورة سافرة مكشوفة . والحكومات العربية ، تعلن الحرب على الإرهاب ، وتدعو إلى الالتحاق بالنظام الدولى السائد بكل مفرداته . والنخبة المثقفة العلمانية ، تهاجم الإرهاب ، وتطرح قيماً غربية .

إذن الحرب ضد العنف الإسلامى ، والمطروح للتأييد مشاريع غربية . وأكثر من هذا فإن الحرب على العنف الإسلامى ، تجاوز الحرب على العنف ، ليصبح حرباً على « الإسلامى » . وفى ضوء طرح بدائل غربية متزامنة مع هذه الحرب ، فإن مساحة الاختيار تتقلص ، حتى لا يبقى فيها إلا الالتحاق بالغرب ، أو التعرض لتهمة الإرهاب بكل مخاطرها الأمنية .

والواقع أن ما يحدث ليس فقط استغلالاً للحرب ضد الإرهاب ، بل هو أيضاً مأزق سقطت فيه معظم القوى الحاكمة . فالعنف الإسلامى ، يحمل دعوة للعودة للدين وللحضارة والتاريخ ، ويحمل قيماً أصيلة ، حتى وإن

تطرف فى ممارستها . ولـذلك فإن محاولات مواجهة هذا العنـف ، والتى بدأت أكثر رشادة ، تحولت إلى موجة عارمـة من الهجوم ضد مجمل الطرح الحضارى العربى الإسلامى .

والمشكلة أن مـواجهة العنف ، تعتمـد أساسـاً على فكرة استبعاد حـركات العنف و إبـادتها تماماً والتخلص منها . وهـذا الموقف يؤدى إلى مهـاجمة مجمل المنظومة التى خرجت منها هذه الحركـات . فحركات العنف تخرج من المنظومة العربية الإسلامية ، لأنها مثل أى منظـومة ، لها تجليات وأطروحات متعددة ، حسب الظـروف المحيطة . ومن يتصور أنـه قادر على إبادة حركـات العنف ، دون إبادة المنظـومة نفسها ، واهـم . لإن مواجهـة هذه الحركات ، لـن تكون بـالإبادة ، بـل بتغيير المسار ، نعنـى بـذلك تغيير مسـار الفيض الخارج مـن حضارة الأمة ، دفاعاً عن مقدساتها . وحتى يغير مسار هذا الفيض ، يجب أن نعلـم أولاً أنه فيـض طبيعى ، يحدث فى كل الحضارات . فأى حضـارة تعانى من التـأخر والتخلف ، ويتـم تحييدها ، وتـواجه مخاطر تهدد وجـودها ، أى حضارة تعانى مـن هذه الظروف ، يخرج من داخلها فيض دفـاعى غاضب ، يحاول أن يحمـى مقـدسـات الحضـارة . فالحضـارة ، مثـل البشريـة ، تحمـل بـداخلها الـدافع للبقـاء والاستمرار . وعنـدمـا تكون الحضـارة ذات تاريـخ طويـل ، وتجارب ممتدة ، وملايين مـن الأبناء ، عنـدئذ تكون حضارة قـوية ، تملـك الدافـع للبقاء ، وتملـك أيضاً القـدرة على البقـاء رغم كـل التحديـات والتهديدات .

فإذا كان العنـف فى أحد جوانبه ، تعبيراً عـن دفاع الأمة عن مقـدساتها ، وإن كان بأسلـوب سلبى ، فإن تجفيف منابعه ، كفكـرة سيطرت على النخب الحاكمة ، هو فى الواقع محاولة لتجفيف منـابع الحضارة نفسها . وهو ما يؤدى

إلى تزايد الخطر المحدق بالحضارة والأمة ، أى أنه فى حد ذاته ، دافع إضافى لطوفان الفيض العنيف . فكلما تعرضت المقدسات لتهديد أشد ، كلما انفجر العنف بلا حدود .

ويبقى العنف وآلامه ! كما تبقى التهديدات المحيطة بالأمة ومخاوفها !

والحقيقة أن فهم العنف وأسبابه ، تدفعنا إلى معرفة الطريق السليم لتجاوز هذه الظاهرة . فالعنف فى أحد جوانبه دفاع عن مقدسات الحضارة ، ولهذا فإن الحضارة الإسلامية ، كمشروع مستقبلى ، هى الوسيلة الوحيدة لمواجهة العنف . وبالتالى يصبح تطوير وتجديد وترشيد ، الحركات الإسلامية هو هدفنا . لأن كل محاولة لإصلاح المسار ، هى محاولة لتنظيم فيض العنف ، الخارج من الدافع للبقاء الحضارى . فالفيض فى حد ذاته ، حقيقة نعيشها ، وفى نفس الوقت نحتاجها . لأن الدافع للبقاء الحضارى ، فى التحليل الأخير، هو الدافع المحرك للأمة ، للبقاء وللتقدم معاً . وبسبب ما تمر به الأمة ، تحول الفيض إلى طوفان ، فأصبح عنيفاً . ولذلك علينا أن ننظم هذا الفيض ، ونخفض من حدته .

وتنظيم الفيض التراثى ، لايتحقق إلا بإعادة إحياء قيم الأمة ، وإعادة قدسيتها مرة أخرى . ولا نعنى بذلك فرض رؤية محددة على الجميع ، فقيم الأمة هى الإطار العام الشامل لثوابتها ، وبالتالى فهى محدد لهوية الأمة ، وفى داخل هذا الإطار يمكن أن تتولد العديد من الرؤى والأفكار .

وحتى نخفض من حدة الفيض التراثى ، علينا أن نسرع بشق الطرق المؤدية لإحياء الحضارة مرة أخرى ، ونفتح الأبواب لنهضة التراث ، فيكون الانتماء لقيم التراث سبباً لإتاحة الفرص ، أمام الأفراد والجماعات ، لا أن يكون سبباً للحرمان من الشرعية . لأن منع الشرعية عن الأطروحات والحركات

النابعةمن الحضارة العربية الإسلامية ، يوحى بل ويؤكد ، أن النظام السائد يعادى هذه الأمة ومقدساتها ، مما يضيف شحنة جديدة للفيض التراثى الدفاعى . وهكذا تتولد دائرة العنف والعنف المضاد . فالحملة ضد الإرهاب ، تحوى العديد من العناصر المخلقة لبيئة ومناخ العنف ، الذى كان سبباً فى خروج الظاهرة منذ البداية .

لذلك فالحملة ضد الإرهاب ، تجنح فى أحيان كثيرة ، خاصة فى مضمونها الثقافى والقيمى ، إلى أن تكون عنفاً موجهاً لتراث هذه الأمة ، وهو ما يجعلها محركاً لعنف مضاد ينبع من الفيض الدفاعى الفطرى للأمة . وهكذا تتحول الحملة التى تدعى مواجهة الإرهاب ، إلى سبب مباشر فى تفاقم الظاهرة ، وتزايد حدة العنف والعنف المضاد . وبهذا نسكب على النار جمراً من نار .

والغريب أن الحكومة فى بداية مواجهتها لحركات العنف الإسلامى ، كانت تحاول المزايدة على هذه الحركات ، حتى تحولت المواجهة إلى منافسة وتبارز فى التدين . والحقيقة أن هذا لم يكن عملاً إيجابياً ، لأن المزايدة فى التدين ، تعنى المزيد من الطرح الشكلى الظاهرى للدين ، وبالتالى تغذى الفهم المتطرف الشكلانى للدين . ومن خلال المزايدة الدينية ، طرحت الحكومة ما تريد من سياسات تحت شعارات دينية ، فجاءت السياسات منافية لمبادىء الحضارة الإسلامية ، أو على الأقل غريبة عنها . ولذلك سقطت لعبة المزايدة .

وفى مرحلة ثانية ، اتجهت الحكومة إلى وقف عملية المزايدة ، وبدأت فى بث قيم « التسامح » عن طريق فتح الباب تدريجياً للقيم الليبرالية الغربية . وبعد أن كانت السياسات تمرر من خلال شكل تراثى متحفى ، أصبح الاتجاه الراهن يهدف إلى تمرير السياسات تحت شكل غربى سافر ، كنوع من إكمال الحملة على الإرهاب ، وتجفيف منابعه . وكأن النخبة الحاكمة ، اقتنعت بأن

المزيد من التدين وملامح الخصوصية ، ولو بأسلوب شكلى ، يعطى الشرعية «للعنف» ، ويسحبها من الحكومة .

وبالطبع فإن المرجعية الحضارية للأمة ، هى حائط الصد أمام أى دعوات للشرعية . ولكن الخروج على هذه المرجعية تماماً ، يعد تحولا خطيرا . والغريب أن بعض رموز الثقافة وكتابها جنحوا إلى هذه الرؤية معتبرين المرجعية الحضارية بوصفها منابع الإرهاب التى يجب أن تجف ، ولكن المرجعية الحضارية ، ليست منبع العنف ، بل إن تحجيمها هو سبب العنف ، وفى نفس الوقت فهذه المرجعية هى الحكم الذى يفرز الأصيل من الوافد . ولأن كتاب العلمانية الغربية ، هم ضمن الوافد ، ولأن إحياء المرجعية الحضارية ، سيفرزهم باعتبارهم وكلاء للوافد الدخيل ، لذلك أصبحت حملة الإرهاب ، فرصة لتدمير كل قيمة تحت ساتر وابل الرصاص . ونسى البعض ، أو الكثيرون ، أن إحياء المرجعية الحضارية ، سيوقف فيض العنف ، ويولد فيض النهضة .

تجفيف منابع التاريخ

إن موقف أى أمة من تاريخها ، يمثل علامة أساسية ، تحدد توقعات المستقبل . فالمستقبل يولد فى الماضى ، وينمو فى الحاضر ، ويتحقق فى المستقبل . لأن التغييرات التى تمر بأى مجتمع ، ليست وليدة اللحظة ، بل هى عملية مستمرة وتدريجية . فالتغيير ، ليس على وجه الدقة ، هو تغير الحاكم ، أو تغير قانون ، أو موقف سياسى . لأن التغير الاجتماعى الحضارى ، عملية أكثر تعقيداً ، وتشمل كل التغيرات الصغرى . لذلك فالتغييرات السياسية والاقتصادية ، هى علامات لها دلالتها فى فهم عملية التغير الشامل والتدريجى التى تمر بها المجتمعات . وفى الكثير من الأحيان ، نركز اهتمامنا على التغير السياسى الحادث ، باعتبار أن الأحداث السياسية ، تمثل ما يلفت الانتباه . فالإعلام مثلاً ، يركز على السلوك والحدث السياسى ، أكثر من غيرهما .

لهذا ، فإن ما نلاحظه ، يمثل الأحداث الأعلى صوتاً ، ولكن التغييرات الاجتماعية تبقى بعيدة عن مجال النظر والرؤية ، لأنها جزئية ومرحلية ، وكذلك لأنها أشياء تحدث داخل جماعات بأكملها ، مما يجعل متابعتها أمرا شديد الصعوبة . ولكن أى باحث مهتم بالمستقبل ، عليه أن يوجه نظره إلى مختلف العناصر المشكلة لحياتنا ، الضمنى منها قبل الظاهر ، والاجتماعى قبل السياسى .

فالتاريخ يحكى قصص الحكام ، ويتجاهل كثيراً قصص الشعوب . ولكن

كـل قصة تـاريخية تحمـل فى الواقـع قصة شعـب ، قبل قصـة حاكمـه . لهذا فالسياسـة هى الرموز التـى نستخدمها فى التأريـخ ، أما الاجتماع والحضارة ، فهما المضامين التى نستخلصها من التاريـخ . وعندما ننظر للماضى ، سنجد أن المتاح مـن كتب تاريخية ، يحكـى السياسى أولاً ، ومنه نستنتـج الاجتماعى ونفهمه . ولكن عندمـا نهتم بالمستقبل ، علينا أن نقلب الصـورة . فالمستقبل ليس وليد السيـاسـى الحاضر ، ولكنه وليـد الاجتماعـى المتشكل فى الماضـى والحاضر. وحتـى نرتـب صـورة الـرؤية المستقبليـة ، علينـا أن نفهـم الوضـع السياسى الراهـن ، باعتباره إفرازاً لعملية اجتماعية مستمرة ، فـإذا أردنا معرفة الوضـع السياسـى المستقبلى ، فعلينا أن نعود للعمليـة الاجتماعية التـى أفرزت الوضع الراهن ، لنتابع سيرها ثم نحدد توقعاتنا عن إفرازاتها فى المستقبل .

وفيما يخص الوضـع السياسـى الراهن ، المتميـز بإقـامة دولة قـوية حـديثة واقتصاد قـوى ، فإن هـذا الوضـع يمتد إلى بـدايات القـرن العشرين ، أو مـا قبلها، فتظهر جذوره فى فكرة الدولـة الحديثة ، والمعاصرة . تلك الأفكار التى نادى بها بعض المفكرين المتأثريـن بالحضارة الغربية ، الأمر الذى أدى إلى زرع بذور هذه الأفكار ، وتجمـع نخب من حولها . وتشكل بذلـك كيان اجتماعى ملتحق بالغرب ، الحضارة والفكر والقيم .

ومن هذا الكيان الاجتماعى ، تفجر التصور حـول الدولة الحديثة . لذلك فـإن قادة ثـورة يوليـو ، أزاحوا الاستعمار الـذى بنـى دولة حـديثة تـابعة لـه ، واستولوا على الدولة التى بناها ، وبدءوا فى تحقيق حلم الدولة الحديثة . ونفهم من ذلك أن الكيان الاجتماعى المتغرب ، لم يقم بـإنشاء الدولة الحديثة بنفسه ، بل قام بذلـك مجموعة من الجناح العسكرى للدولة ، تـأثرت بالفكرة ، ورأت أنها أحق بقيـادة الدولـة ، وأنها القادرة على تنفيذ الفكـرة . وتبع ذلـك تنحى

الكيان الاجتماعى الغربى ، فى فترة عبد الناصر على الأخص ، حيث اتهم هذا الكيان بأنه مخترق من الاستعمار . ومع تمادى الدولة فى طريق الحداثة ، كان من الطبيعى أن تتحالف مع مصدر الحداثة ، فجاءت مرحلة التبعية للغرب ، على يد السادات ، بوصفه صانع الحداثة ، وأيضا مموها . وبالتالى دخل الكيان الاجتماعى المتغرب الحلبة مرة أخرى ، بوصفه الوكيل المحلى ، للمشروع الغربى . مما حصر الصراع حول فكرة الحداثة ، لا فى الاستقلال عن الغرب أو التبعية له ، لأن التبعية لصاحب الفكرة ضرورة ، بل حُصر الصراع فى المنافسة بين الدولة كصاحبة للسلطة ومشروع الحداثة معاً ، وبين الوكلاء الغربيين بوصفهم الأداة الحقيقة لنشر المشروع الغربى .

نستنتج من هذا أن موقف الدولة اليوم ، يعود فى جذوره التاريخية ، لموقف النخبة المثقفة عبر تاريخها الماضى ، والممتد لحوالى القرن من الزمان . بهذا المعنى ، فإن النخبة تطرح « التصور » ، ثم تحاول تمهيد المجتمع لتنفيذ هذا التصور ، حتى وإن لم تكن صاحبة السلطة أو صاحبة مبادرة التنفيذ . وهو ما يفسر لنا سر العلاقة الغريبة بين النخبة المثقفة المتغربة ، وحكام ثورة يوليو . فهذه العلاقة تتراوح بين الصدام العنيف ، وتبعية النخبة للسلطة لحد سافر . فمشروع الحداثة محصور تماماً ، بين النخبتين العسكرية والإدارية ، والنخبة المثقفة والشرائح العليا . ومن الواضح أن النخبة العسكرية ، بوصفها قائد النخب الإدارية والفنية للدولة كما تظن ، ترى أن حق الحكم يتركز فى يد الجهاز والقوة الفاعلة فيه ، مما يدفعها إلى مقاومة أى محاولة من النخب المتغربة للسيطرة على الدولة . ويعنى ذلك ضمناً أن الدولة بجناحيها العسكرى والمدنى ، ترى أنها القادرة على تحقيق الحداثة وحماية الوطن ، أما النخب الغربية ، فتظل متهمة بأن ولاءها للخارج . ولهذا تقبل بوصفها نخبة تعمل

لدى جهاز الدولة ، وترفض عندما تصبح نخبة تعمل لمصلحتها ، وترى أنها صاحبة الحق فى قيادة الدولة .

تلك المفردات ، تؤكد لنا الأساس الثقافى للواقع السياسى الراهن . وهو ما يدفعنا لفهم ما حدث ويحدث على المستوى الثقافى . فالرموز الثقافية لما سمى بالتنوير والنهضة ، قدمت فكرها على أساس أن الحداثة ، هى الطريق للتقدم ، وهى وسيلة الدخول فى العصر . تلك الأفكار التى وتأسست على يد أحمد لطفى السيد ، أكدت ضمناً على مفهوم شديد الخطورة ، وهو الانقطاع التاريخى .

فالتصور الثقافى يرتكز فى أحد عناصره الهامة ، على تصور التاريخ . فالتاريخ فاعل فى الحاضر والمستقبل من خلال عمليتين هامتين . الأولى : أن كل الميراث التاريخى ينتقل من جيل لآخر ، فى عملية توارث حضارى ، تشكل الوعى الجمعى للأمة . والثانية : أن التاريخ بكل ما فيه فاعل اليوم ، من خلال تصوراتنا عنه ، وما يشاع ويروج بخصوصه . العملية الأولى إذن تلقائية لايتحكم فيها أحد ، والثانية عملية مقصودة وموجهة بقدر أو آخر ، فتصوراتنا عن التاريخ ، هى نتاج ما يكتب ويقال ، ليقدم التاريخ للأجيال ، جيلا بعد الآخر .

لهذا فإن وكلاء الغرب ، طرحوا مشروع الحداثة ، من خلال التركيز على مفهوم تاريخى ضمنى وهو الانقطاع . فالتاريخ الماضى - كما صور - ظلامى ومتدهور ، ولذلك علينا أن نخرج منه وننفصل عنه ، حتى ندخل فى الحداثة والمعاصرة . ومن خلال توسيع الفجوة بين الماضى والحاضر ، طرحت تصورات تجعل الحاضر ثورة ضد التاريخ ، فالتاريخ يحمل التخلف ، والحداثة ثورة على التخلف ، لذلك فالحاضر ثورة ضد الماضى .

ولكن فكرة الانقطاع ضمنية ، أكثر مـن كونها علنية . بمعنى أن الانقطاع يحتاج لفهمه ،لتبريـرات ، تجعل قطع ما هو متصل أمـراً ممكنا . والحقيقة أن التبرير جاء أولاً على يد مستشرقين ، ثم أكمل الدور وكلاؤهم المحليون . فتم إعادة قـراءة التاريخ ، حتى يبـدو وكأنه تـاريخ أوربا إلا قليلا ، فهـو عصور مظلمـة إلا قليـلا ، وإقطاع إلا قليـلا . . وهكـذا . وهـذه الـرؤية طـرحـت الحضارة العربية الإسلامية ، بوصفهـا الحضارة الغربية إلا قليلا ، حتى يتسنى من خلال ذلك القفز إلى النقطة الجوهرية ، وهى أهمية إكمال حلقات التاريخ حسب قانونه الغربى ، فإذا كان مـاضينا هو ماضى الغرب إلا قليلا فعلينا أن نجعل مستقبلنـا هو مستقبل الغـرب ، حتى وإن كان إلا قليـلا أيضاً . وبهذا طرح تصور الدولـة الحديثة الذى وصل بنا إلى طرح المشروع الغـربى متكاملاً، من ديمقراطيـة وليبرالية وسوق حر ، وسيادة نمط الـدولة على المجتمع . وإذا كـان ما تحقـق هو نمـوذج تـابع للغـرب ، ولايستطيـع أن ينافســه ، فهو أمـر مقبول، أن نصل فى النهاية إلى حداثة إلا قليلا !!

قراءة التاريخ من قبل النخبة المتغـربة حققت الانقطاع التاريخى من خلال إعـادة تصـور الماضـى بصورة غير حقيقيـة ، ليصبـح الحاضر امتـداداً لماضٍ وهمى . فما يحدث الآن من نمـوذج الدولـة الحديثة القويـة المشوه ، هـو امتداد لأطروحات مثقفـى الغرب عبر حوالى قرن من الزمـان ، وما يحدث مشوه لأنها دولة حديثة إلا كثيرا ، وقوية إلا كثيرا !! فـلا هى امتداد ناجح للماضى ، ولا هى خروج مظفر عن التاريخ .

وبنفس المنطق يمكن أن نرى المستقبل . فـالنخبة المثقفة المتغربة ، ونحن نقدم على مطلـع القرن الحادى والعشرين ، تقدم نمـوذجاً جديداً للتـاريخ ، يتجـاوز عملية الانقطـاع التـاريخى ، ويرسـى قـواعد عمليـة تجفيـف منابـع

التـاريخ . وهـى عملية تجرى على قـدم وسـاق ، تحت دعوى تجفيـف منابـع الإرهاب ، ومنـابع التطرف ، والحقيقـة أنها تجفيف لمنـابع التاريـخ نفسه . فما الفرق بين تصور الانقطاع التاريخى ، وتصور تجفيف منابع التاريخ ؟!

إن المرحلـة الأولى مـن تغـريب مصر ، اعتمـدت على طـرح تصـور عـن التاريخ ، يجعل عمليـة استمراره ، هى بالفعل انقطاعا عنـه ، ولكن التاريخ ينتقل لنا من خلال التصور ، ومن خلال التوارث الحضارى للوعى الجمعى . لهذا فإن النخبـة المتغربة الآن ، اكتشفت أن كـل التصورات التى طرحـت عن التاريـخ ، لم تؤثر على الـوعى الجمعى التـاريخى . فرغـم قرن من التنـوير كما يقولون ، مازلنا تراثيين وعـروبيين وإسلاميين ، أى ظلاميين كما يظنون ! فرغم قرن من التنوير ، فالأمة مازالت تتعلق بتاريخها المتخلف ، كما يفترون !

إن الصمود الحضـارى للأمـة ، يدفع قـوى التغريـب فى العالمين العـربى والإسلامى ، إلى الدخول فى مرحلة تجفيف منابع التاريخ ، أى محاولة إحداث انقطاع وتشـويه فى الـوعى الجمعـى التراثى لـلأمة . وتلـك مرحلـة تبلغ مـن الخطورة شأنا يجعلنا ننادى الأمة أن تستيقظ وتدافع عن نفسها .

ولكن كيـف يتم تجفيـف منابـع التاريـخ ؟ من الـواضح أن الأطـروحات النخبويـة المعاصرة ، تحاول أن تمزج مـزجاً خبيثـاً بين الإرهاب والتراث ، وبين التطرف والتراث . والمقصـود هنا ، أن نحمـل القيم المتوارثـة مسئوليـة سفك الدمـاء ، وحالـة العنف الراهنـة . والهدف من ذلـك ، هو تخويـف الإنسان العـادى مـن ذلك الشر العنيـف الـدمـوى القـابـع من أعماق تـاريخه ووعيـه الجمعى ، حتى يحدث الصراع بين الإنسـان ووعيه بذاته ، ومـن ذلك الصراع تختل عملية التوارث الحضارى وتشكيل الوعى الجمعى .

والغاية النهـائية ، هى أن نولد نحـن أبناء هذه الأمة تواريـخ عن أنفسنا ،

مـن شأنها لا أن تحقـق الانقطاع التـاريخى ، بـل أن تصل بنـا إلى حد العـداء التاريخى ، أى نصـل للمرحلـة التى نعـادى فيها مـاضينا ، ونحـاول أن نبنى مستقبلنا على أنقاض الماضـى ، فيأتى المستقبل حـاملاً فى جنباته قـوى دافعة لهدم الوعى الحضارى الجمعى للأمة .

فإذا كان تصورنـا عن الطرح الثقافى الراهن صحيحـاً ، فماذا عن المستقبل السياسى المتوقع كامتداد لهذا الطرح ؟!

إن تصور الانقطاع التاريخى أوصلنا لمشروع الحداثة الوافد والمفروض علينا ، وتصور تجفيـف منابع التـاريخ سيؤدى بـالتالى إلى نموذج حـداثة معاد لـلأمة تماماً، ويحاول أن يحطمها . فما نتوقعه هو ما حدث فى تركيا منذ مطلع القرن ، وما حـدث فى تونس فى العقـد العاشر من القرن ، مضـافاً لهما قوة إضـافية ، عندما يحدث ذلك فى مصر ، ومختلف أرجاء العالمين العربى والإسلامى .

فالمشروع الثقافى الغـربى الراهن سيؤدى إلى أوضـاع سياسية تحارب ميراث الأمة بشكـل سافر ، الـدين واللغـة والقيم ، وتحاول أن « تقتل » كـل عناصر ومكونات الوعى الجمعى للأمة ، حتـى تحقق فى النهاية التدمير الشامل المانع لاستمرار وجود الأمة نفسها .

الأمـة ضـــد الأمـة

كلما شعرنـا بالأزمـات المتلاحقـة ، كلما كان علينـا أن نبحث عـن أسباب تلاحق الأزمات ، والأهم أن نبحث عن سبب عدم قدرتنا على تجاوز الأزمات . وببساطة علينـا أن نعرف « سر » تأخرنا . ورغم تعـدد العناصر ، إلا أن هناك عنصرا رئيسيا ، يفسر ـ غالباً ـ مـوقف الشعوب من التطور ، فيفسر التقدم ، كما يفسر التأخر . وهذا العنصر الرئيسى هـو الإرادة ، وهو جملة من العناصر المتشابكة معاً . فالإرادة تصف جملة الدوافع الإيجابية ، بكل مالها من مبررات عقلية ، وشحنـات وجدانية ، مكـونة فى النهايـة ، لفعل خلاق إيجابـى ، له القدرة على تجاوز الـواقع الـراهن . فـالصمود والتحـدى ، عنصران للإرادة ، ولكن اكتمال الإرادة يتحقـق بوضـوح التوجـه والغايـة ، وتوفـر الدافـع اللازم للتحرك الفعال من أجل تحقيق الغاية ، وكذلك توفر الرؤية الفكرية التى تحدد آليات التحرك ومفرداته ومفاهيمه وتصوراته .

فهل نحن أمة تملك إرادتها ؟ ! الواقع أننـا نعانى بالفعل من عجز الإرادة ، لأسباب عديدة ، مما جعلنا نفتقد للأسـاسيات الأولية المكونة للإرادة . فحتى تملك « إرادة » لتحقيق أهداف عظمى ، عليـك أولاً أن تملك الثقة بالنفس . فعندما يتصـور شخص ما ، أنه « غير قـادر » على مواجهة التحديـات ، فإنه بالتالى سوف يستسلم لتلك التحديات .

والثقة بالنفس ، ليست شعاراً ، أو مجرد حالة وجدانية ، بل هى اقتناعات

أصيلـة . والثقة تـوجد مـن عنـاصر هامـة ، فهـى تعنى الاعتقـاد بأن لـدى الشخـص ما يجعلـه قـادراً على تحقيق مـايـريد ، أى أنـه يملـك الإمكانيـات والاستعدادات . وكذلك فإن الثقة بالنفـس تتأكد من خلال اقتناع الشخص بأن مـالديـه من جهد ، وقـدرة على الكفاح ، يمكنـه من توظيـف إمكانيـاته لتحقيق أهدافه .

والثقة بـالنفس ، لايمكن إلا أن تؤسـس على قبول الذات . والقبـول ـ فى تصورنا ـ غير الغرور ، وغير التقليل من أهميـة الذات . بمعنى أنه ليس مديحاً للـذات ، ولا ذمـاً لها . والقبول هـو الأسـاس الموضـوعـى الإنسانـى لموقـف الشخـص مـن نفسه . فهـو يعنـى تقبـل الـذات كما هى ، بكـل السلبيـات والإيجابيـات ، أى أن القبـول يفترض ضمناً أن الإنسـان ليـس خيراً ولا شراً ، ولكنه جملة من العناصر ذات الأثر المتباين . وإذا تقبل الإنسان نفسه كما هى ، عرف أنـه يملك الإيجابيات المؤدية للتقـدم ، وعرف أيضاً أن لديـه سلبيات ، عليه أن يتعـايش معها ، وأن يعيـد توظيفها ؛ ليصبـح أثرها السلبـى فى أدنى صوره .

ومن « القبول » تتكون الأسس العقلانية السليمـة للثقة بالنفس ، وبالتالى للإرادة لأنها تؤكد على طبيعة « الإنسانى » ، التى لا يمكن وصفها «بالكمال» ، كما لا يجوز تصورهاعلى أنها « انحطاط » . وإذا كـان التركيب الإنسانى ، على هذه الـدرجة من التعقيد ، فـإنه بالتالى خليـق بتحقيق التقدم والتأخـر ، كل حسب توظيف الإمكانيات وتوجهها ، والإرادة المصاحبة لذلك .

إذن الشرط الإنسانى الأول الـذى هو القبول شرط يعارض كـل التوجهات العنصرية ، بكل ما فيهـا من تشويه للإنسان . فكـل « إنسان » يملك شروط تقدمـه وتأخره ، وبالتـالى فإن أفعالـه منها الإيجابى والسلبى . فـلا يمكن أن

نميز إنسانا عن آخر ، بل علينا أن ندرس حالة « الإنسان » لنعرف مدى قبوله لذاته ، وثقته بنفسه ، وامتلاكه لإرادتـه ، ونسأل فى النهاية عن اتجاه أفعاله . وبهذا ، سنجـد إنسانـا يملك إرادتـه ويحقق الأفضـل ، فنعرف أنـه فى حالـة «تقدم» ، وآخر تنهار إرادته ، ونعرف أنه فى حالة « تأخر » . على ذلك نتصور أن كـل إنسان يمكـن أن يمر بحـالة التقـدم وحـالة التـأخر ، كمـرحلتين فى حياته . فلا يجوز أن نصف إنسانا بأنه متأخر بالفطرة ، أو متقدم بالفطرة .

وما ينطبـق على الإنسان ، هـو نفسه ما ينطبـق على الشعوب . فـالشعوب تحتاج لشرط «القبول» ، أى أن تتقبل ذاتها بكل ما فيهـا ، ثم تكتشف جوانب « الذات الحضارية » ، فتعرف مكامن القوة ، ومناطق الضعف . ومن خلال الثقة بـالنفس ، يتحقق للشعب ثقتـه فى قدرته على تحقيق إيجابيـاته على أرض الواقع ، وأيضاً قدرته على تجاوز تأثير سلبيـاته . ومن هنا تتكون «إرادة الأمة» ، المحققة للنهضـة ، اعتمادا على عنصرين ، عنصر الرؤيـة العقلانية الكـاشفة لإنسان هـذه الأمة ، دون مديح أو ذم ، وعنصر الـدافع الوجدانـى ، المحقق للثقة والرغبـة ، والمشكل للدافع والحماس ، الـذى يجعل الجهد متكامـلاً مع الـرؤية العقـلانية ، ومحققـاً لإنهاض كـوامن التميـز داخـل الأمة . فـالرؤيـة العقلانية الصادقة للذات الحضارية هى الوسيلة لاكتشاف ما بداخلنا من قيم ومبادىء ، وما بداخلنا من ضعف ، وعندمـا تتجمع القيم المتميزة مع الرغبة فى النهوض ، نبدأ عملية التجديد ، وندخل فى مرحلة النهضة .

تلك هى حالة تكون إرادة الأمة الناهضة ، فما هى الحالة الدافعة للتأخر؟! نظن أن التأخر يبدأ من خلال الرؤية والدافع الوجدانى معاً ، ويظهر فى حالة « مديح الذات » كما يظهر فى حالة « ذم الذات » والأولى تصف الغرب الآن ، والثانية تصف العالمين العربى والإسلامى فى اللحظة الراهنة .

فالغـرب يختال بما أنجز ، وهو كثير ، ولكـن الرؤية التى تقـوم على أساس تـأليه الـذات ، هـى رؤية متميـزة ، لا تـؤدى إلى القبـول ، بل إلى الغـرور . والغرب الآن يرى إيجابياته أكثر من سلبياته ، ويتصور نفسه متميزاً عن شعوب العالم ، فتسـود فيه الـرؤية العنصريـة ، وهى أصيلـة لديـه . وعندمـا يتصور شعب أنـه متقدم بالضرورة ، هنـا تختل إرادته ، فـلا يعى سلبياتـه ، فيعرض نفسه للتأخر ، وضياع ماحققه بالفعل .

أما نحن ، أبناء الأمتين العربية والإسلامية ، فنعيش حالة من ذم الذات ، وفى نفس الوقت ، نعيـش حالة من الإطراء على الذات . وهـو وضع معقد ، بسبـب تـاريخنا الممتـد . فنحـن نـرى واقعنـا الحالى ، بصورة سـوداء ، تـرى السلبيات دون الإيجابيات . ولكننا مع ذلك ، لا ننسى تمجيد ماضينا ، بما فيه مـن إنجاز أسطـورى ، فرعـونى وإسـلامى . ويصبـح التمجيد للماضـى ، والهجوم على الحاضر ، وربما المستقبل أيضاً .

ومـا نحن فيـه الآن بعيـد عن القبـول ، كفعـل عقلى مميـز لطبيعة الأمـة ، ومتفهم لمكـوناتها . فـالرؤيـة السائدة لـدينا الآن ، تصـور حالتنـا وكأن كـل الإيجابيات قد ماتت مع التاريخ ، ولم تبق إلا السلبيات . مما يدفعنا إلى «رفض الذات» ، وتصور أنفسنا بـوصفنا العائق أمام تقدمنا ، أى تصبـح الأمة ضد نفسها ، فما يحرمهـا من التقدم هـو كونها ذاتها ، ولـذلك يصبح التقـدم رهناً بقـدرة الأمة على التخلـص من ذاتها ، وتقمـص ذات الآخـر المتقدم ، حتـى تتقدم مثله .

وهذه الرؤية العقلية ، مـولدة لحالة وجدانية ، أقل ماتوصـف به أنها حالة يأس وإحباط ، وهى فى الواقع تتجاوز ذلك ، لتصبح حالة وجدانية أقرب إلى «الميول الانتحارية» . لأن نظرتنا لذاتنـا ، وللآخرين ، عنصرية ، وعنصريتها

ليست موجهة « لـلآخر » كما فى الغرب ، بل موجهة للـذات نفسها . أى أننا أعداء أنفسنا . تلك هى المأساة .

فكيف نتقدم ؟! فى الحال الـراهن ، لن نتقدم ، إلا بالتخلص مـن الرؤية العقلية التى سيطرت على أذهـاننا ، لتحل محلها رؤية عقلية أخـرى صادقة ، تقوم على « تقبـل الذات الحضاريـة » للأمـة ، رؤية لاتعرف مـدح الذات ولا ذمها ، بل تـؤسس على التصور الإنسانى الفطرى . وحتـى تتغير الرؤية ، لا نحتاج فقـط إلى عمل ثقـافى ، بل نحتاج لخوض معـركة سيـاسية وحضـارية شاملة ؟! نعم معركة !

إن وقائع التاريـخ الحزين ، تؤكد أن الـرؤية العنصرية التى أثـارها الغرب عنا ، هى نفس الرؤية التى روجهـا وكلاء الغرب المحليون ، والتى نتج عنها فى النهايـة تشوه صورة الـذات إلى هذا الحد . فوكـلاء الغرب الثقافيـون على وجه الخصوص ، أكدوا لنا أن تراثنا متخلـف ، فهو شمولى ، وشخصيتنا خاضعة لا تعـرف إلا المذلة ، وتقـاليـدنا هـى السبـب الحقيقـى الذى أدى إلى تعطـل محاولات التنمية ، فأى مصير يريده لنا هؤلاء الوكلاء ؟!

والأمر لم يعد وجهـة نظر تحاول فرض نفسها علينـا ، ولا هى فقط استعمار عقلى ، بل الأمـر وصل إلى تشـوه حقيقى لتصـورنا عـن أنفسنا ، تشـوه تجاوز عقـول المتغربين ، والمغتربين ، إلى عقـول البسطاء أنفسهـم ، بل وإلى عقـول المؤمنين بذواتهم . نعم فحتى المتقبلين للذات الحضارية للأمة ، طال تفكيرهم التشوهات المسمومة عن الذات .

وأصبح لـزاماً علينـا ، أن نعيد اكتشـاف ذاتنا ، اكتشـاف مانـع لكراهيـة الذات ، ومانع أيضاً لتمجيد الـذات . وحتى يتسنى لنا ذلك ، يجب أن نبدأ من مسلمات تميزنا الحضارى ، واختلافنا عن الآخر ، فقوتنا قد تكون ضعفه ،

وضعفه ربما يكون قوتنا . لذلك نحتاج لمعيارنا الخاص فى تقييم ذاتنا ، لنحدد مصادر القوة ، ونقاط الضعف ، فنعظم الأولى ، ونحجم الثانية . ومعيارنا الخاص ، ليس إلا الثابت فى عقيدة الأمة ، أى القيم الأصيلة المتوارثة ، والمكونة للأمة ومحددة لذاتها . فإذا اكتشفنا قيمنا ، حددنا بذلك « الثابت » فى أمتنا . ومن خلاله نستطيع تقييم الماضى والحاضر ، والأهم أننا سنتمكن من تجديد أنفسنا لنحقق النهضة .

وحتى لا تكون الأمة ضد نفسها ، علينا أن نعى تماماً ، أن القيم الوافدة مؤدية بالضرورة لتلك الحالة من عداء الذات ، مما يعنى أن التخلص من هذه القيم شرط أساسى للنهضة . حيث نحتاج إلى فرض « مقياسنا » الحضارى ، ونزع « مقياس » الآخر ، لأن الآخر مولد للعنصرية الموجهة للذات . ومن المهم أن نؤكد أن العودة لمقياس ومعيار حضارتنا ، لايجب أن يكون مولداً للعنصرية الموجهة للآخر . فالمبدأ الأساس ، المحقق لقيم حضارتنا ، أن لكل شعب قيمه فى حد ذاته ، وكل حضارة نافعة لأهلها ، ومفيدة للآخرين ليتعلموا منها ما يساعد على تجديد حضارتهم .

الإبادة الحضارية

لقد أصبحت تحديات نهاية القرن العشرين ، من نوع خاص ، يتميز بكونها تحديات سافرة وغير منظورة فى آنٍ واحد . فهى تحديات سافرة ، فى نظر طليعة هذه الأمة ، القادرة على فهم دلالات ما يحدث . وهى تحديات غير منظورة ، لأنها فى وعى الجماهير ، ليست عداءً واضحاً ، يمكن أن تعرف حدوده وفاعله . ولذلك اختلطت الأمور لدرجة يصعب معها تحرير عناصر المعركة ، ومعرفة الجانى من المجنى عليه .

فعبر سنوات طويلة من التحدى الثقافى ، تشوه وعى الأمة ، إلى حدود خطيرة . فالتحدى الخارجى ، واجه واقع الأمة ، وأشعرها بتخلفها ، مما جعلها تتجه إلى نقد الذات وجلدها . ونقد الذات المبالغ فيه ، والذى يؤدى إلى نزع الثقة بالنفس ، وهزيمة الإرادة ، كان المدخل الحقيقى لعملية استعمار العقل والهوية . فلقد بات واضحاً ، أن الاستعمار العسكرى ، والهيمنة السياسية والاقتصادية السافرة ، ليساهما الطريق للوصول إلى الهدف الحقيقى للسياسات الاستعمارية الغربية . وتأكد من أدبيات الحركة السياسية الغربية ، أنها تحاول خلق توابع لها ، توابع تملك إرادة أن « تتبع » الغرب باختيارها .

فإذا كانت حالة الضعف الداخلى قد مهدت الأرض ، فإن توجهات الغرب نحو ما يسمى بالكوكبة أصبحت الفعل المخطط لاستعمار عقل الأمة ووجدانها . فالدول الغربية تسعى الآن إلى إقامة مجتمع دولى أحادى الاتجاه ،

لايعرف التميـزات ، إلا المتحفى الشكلى منهـا . والفكرة مـن ذلك أن سيـادة نمط الحياة الغـربى تؤدى بالضرورة إلى عـالم تحكمه نفس المعايير ، مما يسمح للغـرب بتولى القيـادة الـدولية ، فى منـاخ متجانـس مـن الأفكار والسلـوك . وتجانـس المعايير الحاكمـة لسلـوك البشر فى كل أرجـاء العـالم ، يحقق عمليـة التنميط ، التى من شأنها إتاحة الفرصة للسيطرة على سلوك كل فرد فى أى ركن من أركان العالم .

لهذا وصلنا إلى مرحلـة معقدة فى صراع البشرية ، فالقيـم أصبحت فى بؤرة الصراع ، لأن استمرار الرأسمالية الغربية يحتـاج اليوم إلى التحكم فى سلوك كل فرد على هذا الكوكب . فاختلاف سلوك الشعوب والأمم وتوجهاتهم من شأنه خلق أنماط متبـاينة ، لها أهداف مغـايرة ، وهو مـا يفضى فى النهايـة إلى نمط عالمى غير متجانس ، ولايسمح بإمداد الآلة الرأسمالية فى العديد من الدول .

والفكرة فى حد ذاتها شديدة الغرابة ، فلماذا يريد الغرب تنميط كل شعوب العـالم على قيمـه ومعـاييره ؟ ولماذا لا يسمـح بـالاختـلاف ؟ وكيـف يفترض التجانس العالمى ؟!

إن العناصر الدافعة لهذه الهيمنة الحضارية عديدة ، ومنها الدوافع الخاصة بالمصلحة وتلك الخاصة بـالمضمون والمعنى . وفيما يخص المصلحة ، يظهر أن الرأسمالية العالمية ، عندما تجدد نفسهـا تحتاج دائماً إلى دماء جديدة ، لا تجدها إلا فى شعوب العالم غير الغـربى . فهى تحتاج إلى أيـدٍ عاملة ، وشركات عـابرة للقومية ، وسوق لتوزيع المنتجات . لذلـك فالآلة المنتجة للرأسمالية تحتاج إلى قواعـد للإنتاج والاستهـلاك تمتد إلى كل أرجـاء العالم . وحتى يتسنـى ذلك ، تحتاج هـذه الآلة إلى قوانين متشـابهة فى مجال الاستثمار ، وحدود مفتوحـة طبقاً للمصـالـح الخاصـة بقـادة الـرأسمالية الغـربيـة ، وأخيراً تحتـاج إلى سـوق

للمنتجات، فى كل دول العالم ، يحكمها نفس المنطق الاستهلاكى . أى أن الرأسمالية العالمية تحتاج إلى « نمط استهلاك » واحد فى كل دول العالم ، حتى يتلاءم مع « نمط الإنتاج » الذى تم توحيده .

وتوحيد نمطى الاستهلاك والإنتاج ، أدى إلى تصور هام ، عن توحيد نمط الحياة . وعندما نصل إلى هذا النمط ، فإن ما يطرح يصبح توحيداً للنمط الحضارى ، بكل ما يشمله من قيم ومبادىء وأفكار .

وعلى المستوى الخاص بالمضمون والمعنى ، فإن الغرب أصبح يرى أنه صاحب رسالة عالمية ، لذلك فإنه يعتقد أن نمط حياته من الرقى ، بحيث يفرضه على الآخرين . ويحقق بذلك الأممية الغربية التى هى أحد ملامح الحضارة ، وغاياتها النهائية . وتوحيد وسيادة القيم الغربية ، كمرجعية لمختلف دول العالم ينقلاننا إلى مستوى آخر من المصلحة . لأن ذلك يؤدى بالضرورة إلى نمط سياسى موحد ، نمط الديمقراطية الليبرالية . وهو ما يسمح للغرب بفرض مظلة تأثيره السياسى على جميع دول العالم . ويجعل القوى الحاكمة فى هذه الدول تابعة له بالضرورة ، من حيث أنها « مقلد » للمرجع ، وهو الغرب .

تلك الأفكار تتجمع فى النهاية لصياغة عملية تدويل الحضارة . وهى فى جوهرها عملية إبادة الحضارات غير الغربية . وفكرة الإبادة ذات جذور واضحة فى التفكير الغربى . فعملية الاستعمار كان بها قدر من الإبادة ، ومعاملة شعوب العالم كعبيد ، ونهب ثروات البلاد المستعمرة ، كلها أشكال ودرجات من الإبادة .

كذلك فإن الإبادة كفعل دموى غير إنسانى ، وجدت طريقها فى المنظومة الغربية ، بشكل سافر ، لاينقصه ألفجور . فمنذ العصور الوسطى تصور

الغرب الأجناس الأخرى بأنها أقل « قيمة » على معيـار الإنسانية ، وتأكد ذلك بالفكر البيولوجى الداروني ، والنزعة المادية فى التفكير . فأصبح للبشرية أنواع وأصنـاف ، ليسـت دليلاً على التنـوع والاختـلاف ، كما فى مفهـومنا العـربـى الإسلامـى ، بل دليـل على أن الناس خلقت على درجـات من الإنسـانية غير متساويـة . لذلك ، هنـاك جنس يقـود ، وجنس يتبع ويستعبـد . وارتكب الغرب العديد من المذابح ، تحت هـذه الشعارات السادية ، مثل القضاء على السكان الأصليين فى العـديد مـن المناطق والقـارات ، وكما حدث مـع الهنود الحمر فى أمريكا .

وكذلـك فإن فكـرة قيام دولة إسرائيـل الاستيطانيـة ، هى نمـوذج متجدد ومستمـر للفكر الغـربـى العنصرى . لأن الغرب رأى أن فلسطين « أرض بـلا شعب » . وذلك يكشـف مدى العجرفة الغـربية التى ترى أمـامها الأرض وما فيها باعتبـارها مصادر نافعـة ، لايجوز أن يستفيد منها إلا الإنسـان الغـربى ، فتصبح متاحـة له ، أما البشر فهم كم مهمـل ، ومن درجة تطوريـة وإنسانية أقل . ويتم « استحلال » الآخر ، ومن ثم « استحلال إبادته » .

والغرب فى ذلك ، يـؤكد على أن تفوقه كبشر عن غيره ، قاعـدة ثابتة ، فما حدث فى البوسنـة والهرسك يؤكد أن التفكير الغـربى ، مازال يؤكـد عنصريته بدرجه تفوق الخيـال . لأن الصراع بين الصرب والبوسنيين ، صراع بين أعراق من نفـس الجنس إن صح التعبير . فـالإبادة هنا مـوجهة إلى فصيل وفـرع من نفـس الأصـل ، ولكنـه « فصيـل » مختلف دينيـا ، وهـذا فى حـد ذاتـه مبرر للإبادة. فهل أدى اختلاف الدين إلى تقليـل درجة إنسانية الإنسـان ، فأصبح مباحاً ؟! نعم ، لأن الغرب يرى أن وجود دول داخل نطاقه ، تدين بالإسلام ، يعنى اختلافاً غير مسموح به . ولأن الأوروبـى الشرقى المسيحى يدخل ضمن

مرتبـة السادة البيولـوجية ، والأوروبى الشرقى المسلـم ، خرج من هـذه المرتبة بإسلامه ، لذلك أصبح من حق الأول ، إبادة الثانى .

تلك هـى منظومة الإبـادة ، تبررها المصـالح ، وفرض الهيمنـة ، وتغذيها عنصرية الغـرب . ومن هـذه المنظومـة ، تخرج فكرة « الاستحـلال » جلية فى وجدان الغـرب . لأن عمليات الإبادة ، بدرجـاتها المختلفة ، تتم مـن خلال مبررات « تستحل » الآخر ، وتصور دمه أو عرضه أو عقله أو دينه بأنه مستباح لأنه غريب أو متخلـف أو معادٍ أو عدو السامية . وما يتـم وصمه بالسلبية ، يستحـل من قبـل الغـرب ، لأن الأخير هـو حامـل رسـالـة البشرية ، سـواء السماويـة أو غير السماويـة . ولهذا لا تختلـف كثيراً ، النـزعـات الاستعماريـة للقـوى العلمانية الغـربية ، عـن القوى المسيحيـة الغربيـة ، والفرق الحقيقـى الملاحظ ، هو فرق فى درجة الاستحلال ، وهـو نتاج فرق فى درجة « الممكن » ودرجة « المبرر » .

فمسلمو البـوسنة ، كانوا هـدفا للإبـادة الجسدية ، لأن ذلك ممكـن ، أما مسلمو العالم ، والعرب منهم ، فإبادتهم الجسدية غير ممكنة ، وهى أيضاً غير مبررة ، لهذا يتعرض العـالمان العربى والإسلامـى ، للإبادة الحضاريـة ، فهى «ممكنة » و« مبررة » . ممكنة فى نظر الغرب مـن خلال قدرتها المتصورة على زرع قيمـة فى أرضنا مـن خـلال وكلائه ، ومبررة لأنها تقـدم للشعـوب الغربيـة ، باعتبارها رسالة الغرب الحضارية .

فالغرب « يستحل » عقول البعض ، وأجساد البعض ، وإنسانية الجميع . وفكرة « الاستحلال » فى الفكر الغربى نتاج نظرته البيولوجية التى تجعل التقدم والخير وغيرهما من نصيـب نوع بيـولوجـى دون الآخر ، فتصبـح القيادة ملـك الغرب ، لأنه كذلك . فالنظرية العنصرية ، تبنى أساساً على مطلق غير قابل

للتغيير ، يصنف الشعوب ، فيحدد مصيرها ، فيستحلها الغرب ، طبقاً للممكن والمبرر .

لهذا علينا مواجهة الهجمة الغربية من خلال فهم هذه الظاهرة ، أى عملية الإبادة ، من خلال الاستحلال ، على أساس العنصرية ، تلك هى العناصر الدافعة لأكبر عملية يشهدها العالم ، من الإبادة الجماعية ، بل الإبادة الكوكبية ، والتى تهدف إلى دخول القرن الواحد والعشرين ، والعالم تحكمه حضارة واحدة ، فتدخل كل الحضارات الأخرى إلى متحف التاريخ .

وهذا التصور يبنى أساساً ، على إمكانية مفترضة ، لإعادة تنميط الإنسان ، بوصفه متلقيا سلبيا ، وصفحة بيضاء ، ومادة قابلة للمعالجة ، مما يسماح بفرض قيم ومبادىء ومدركات على أى إنسان ، فتتم له عملية « غسيل مخ » ، ثم يعاد تنميطه أى يوضع له « برنامج » جديد ، وكأنه حاسب آلى ، مما يسمح بالسيطرة عليه . فيأتى سلوكه مطابقاً للبرنامج لا يخرج عنه . ولهذا فإن أى تطوير جديد ، لن يحدث إلا بالتعديل فى البرنامج ، ولن يعدله إلا صانعه .

فهل هذا التصور مقنع ؟! نعم إنه كذللك بالفعل ، فالنخبة المثقفة المتغربة فى بلاد العرب صورة طبق الأصل من نموذج الإبادة الحضارية . فهى أولاً نخبة تم استحلال عقلها ، من خلال مبدأ نشر الإشعاع الغربى الإنسانى ، فتم تنميطها ، فأصبحت لا تأتى بالجديد أبداً ، إلا ما نقلته عن الغرب . وعندما يتصارع الغربيون حول بعض الأفكار ، يفعل وكلاؤهم نفس الشىء وعندما تظهر « موضة » فكرية جديدة فى الغرب ، يتسابق وكلاؤهم على نقلها .

والأغرب من ذلك ، عندما يؤكد الغرب تفوقه الثقافى ، ومدى تطور

ثقافته ، للدرجة التى تبيح « استحلال » ثقافتنا « المتخلفة » لزرع ثقافة الغرب ، فإن وكلاء الغرب الثقافيين يفعلون نفس الشىء . فالنخبة المثقفة فى بلاد العرب ، وأمة المسلمين ، قد « استحلت » قيمنا وثقافتنا ، وأصبحت تقوم بدور وكيل العنصرية الذى يدمر ذاته من أجل ذات الآخرين . وبهذا لم يحصل الغرب على التبرير فقط ، بل والإمكانية أيضاً ، والأهم من ذلك أنه وجد وكلاء يقومون بالعملية نفسها ، فتأتى الإبادة الحضارية ، على أيدى أبناء الحضارة أنفسهم ، فيزرع بذلك الفتنة بين أبناء الأمة . نعم لقد زرع الفتنة فى أمتنا ، عندما استحل عقولنا وهويتنا ، ووجد من بيننا وكلاء له ، يقومون «بالاستحلال » و « الإبادة » .

الحداثة ... موت أمة

لكل أمة ملامحها الخاصة ، وهى جملة مايميزها ، من قيم وأفكار ، وأيضاً جملة ما يخرج منها من أنماط وتكوينات . تلك العناصر مجتمعة ـ وغيرها ـ هى ما يشكل تميز الأمم عن بعضها البعض ، ويفرق بينها ، ويجعل لكل منها إنجازه الخاص . وكيان الأمة ـ على هذا النحو ـ هو وعيها الجمعى ، فهو حاضر بداخلها ، تتعايش معه ، وتنظم حياتها من خلاله . والأقرب للتوقع أن نتصور الأمة بوصفها صورة فى الذهن ، وتفضيلا وجدانيا وواقعا معيشا . وبالتالى ، فإن الأمة ككيان اجتماعى حضارى توجد دائما ، وليست فكرة نحاول الوصول لها ، أو حقيقة نبحث عنها . فالأمة لا توجد فى الماضى فقط ، بل هى حاضرة دائماً ، ولذلك فهى كيان ورؤى موجودة الآن ، كما كانت موجودة فى الماضى ، وستبقى كذلك فى المستقبل .

مع هذا ، فإن وجود الأمة يصبح أحياناً وجودا مشكوكا فيه . فعندما تمر الأمة بالمحن ، وتتكاثر عليها المصاعب والأزمات ، وعندما يصاب وعيها بالتشويش ، عندئذ يصبح كيان الأمة المعرفى والمعنوى والمادى ، مغطى بجبل من التصورات الخاطئة ، والأزمات المحيرة . وتتراجع الصورة فى أذهان الكثيرين ، حتى نصل لمرحلة تصبح فيها صورة الأمة محل تساؤل وبحث وخلاف . وفى هذا المرحلة نمر بإعادة اكتشاف الذات ، وتطرح تصورات كثيرة عن الذات ، لدرجة تصل بنا إلى فقدان الأسس التاريخية والموضوعية لكيان الأمة .

فبسبب تدهور أحوال الأمة فى القرن الثامن عشر ، تزايدت تحديات الداخل والخارج . فمن هجوم خارجى بالعسكر ، والقوة الاقتصادية ، ثم بالأفكار ، ومن تراجع داخلى ، وتدهور فى القيم ، وتأخر فى الأداء ، ونضوب فى الإنجاز ، من هذه جميعاً بدأ السؤال عن مستقبل الوطن ، وطريق التقدم . ومع تزايد الأسئلة ، وتراجع الوعى نسبياً ، أصبحت الأمة نفسها محل شك .

وعلى المستوى الثقافى خرجت المادة المكتوبة مظللة بالغموض ومترددة ، ومتشككة . ووصلنا للمرحلة التى يميزها أننا لا نعرف أنفسنا ، وتلك هى قمة أزمتنا . فمن أطروحات تتجاوز أهمية معرفة الذات ، إلى أخرى لاترى الذات إلا قابعة فى أعماق التاريخ ، تفجرت حرب التاريخ والوعى ، وأصبح السجال الدائر الآن ، هو حرب حول الهوية . فيرى البعض أن الهوية هى نموذج حدث فى الماضى ، ولن تعود إلا بإعادة ما حدث فى الماضى كما هو . وآخرون يرون أن الهوية هى من صنائع الزمن ، وللعصر هويته التى يجب أن نتبناها . فإذا كان الفريق الأول يحتمى بالتاريخ أو إحدى فتراته ، فالفريق الثانى يؤكد على زوال التاريخ بكل فتراته ، وأهمية تجاوز التاريخ جملة ، للدخول فى العصر .

وتهمل الرؤى الثقافية قانون التاريخ نفسه وآليات تطوره ، لأنها جميعاً تقف عند فعل الانقطاع التاريخى ، دون أن تفهمه أو تفسره . فالحاصل لدينا أننا نمر بانقطاع تاريخى ، فما كان فى الماضى لم يعد حاضراً الآن بنفس ملامحه وتماسكه . وكأن الأمة نفسها قد أصبحت فعلا ماضيا ، فهى غير حاضرة الآن بدرجة تسمح برؤيتها بوضوح . والانقطاع هنا يتحقق مجازاً فالتشكيلات الاجتماعية أصابها التغير ، والقيم مرت بمرحلة تقلب وربما انقلاب ، والنظم تبدلت تبدلا جذريا ، وكل ذلك معاً جعل صورة الماضى غير ممتدة امتداداً

طبيعياً فى الحاضر ، وبـذلك يتحقـق الانقطاع مجازاً . فـالانقطاع التـاريخى ، يرمـز إلى انقطاع مسار الحركة والتطـور ، بدرجة كبيرة وفارقـة ، تجعل الحاضر ليس امتداداً للماضى ، بل حالة فُرضت كانقطاع عن الماضى .

وفى الحالتين العربيـة والإسلامية ، فإن الانقطـاع حدث مع فـرض نموذج الحداثـة ، أى مع استيراد نمـوذج حياتـى من الغـرب ، تـم إدخالـه تدريجيـاً وتطبيقه على الـواقع المعيـش . لذلـك فنموذج الحداثـة هنا هـو نتاج تـواريخ أخرى ، ثم تم فرضه على تاريخنا دون أن يكون نتاجاً له . لذلك يصبح ماضينا هو فعل مستمر لنمـوذج ، تم إيقافه أو إلغاؤه تدريجياً لصـالح نموذج وافد ، ويصبـح الانقطـاع هـو انقطـاع استمـرار عمليـة تطـور النمـوذج العـربى الإسلامـى ، لصالح فـرض نموذج آخر ، أخذ كنمـوذج سابق التجهيـز ، ثم تطويره داخل تاريخ آخر .

وأمام هذا الموقف التاريخى ، يحاول وكلاء النمـوذج الغربى إعادة اكتشاف التاريخ ، تـاريخنا العربى الإسلامـى ، فى محاولة لصياغة تاريـخ آخر ، يجعل الماضى المغاير والمفارق ، ما هو إلا جـذور للحاضر الغريب والدخيل . فيتم بذلك قراءة التاريخ بوصفه مبررا للحاضر ، حتى يصبح الحاضر إفرازا طبيعيا للماضى ، ويتم ذلك من خلال التأكيد على عالمية التاريخ نفسه ، وأنه تاريخ واحد للبشرية . وبهذا يتم استيراد التاريخ الغربى ، وقراءة التاريخ العربى من خلاله ، حتى يصبـح الماضى مماثلاً فى المعنى والدلالة بيننـا وبينهم . ولذلك توصف عصـور الازدهار العربى الإسـلامى ، بأنها العصور الـوسطى المظلمة بالضرورة ، والتى لا ينتـج عنها إلا عصر التنوير ، الـذى تأخر لدينـا ، وهذا سر تخلفنـا . والمعنى الضمنـى فى هذا أن التـاريـخ هو فعـل تطورى يتجـه فى النهاية إلى العلمانيـة والحداثة ومابعدهما ، ولهذا فماحـدث فى الغرب سيحدث

عندنا . ولكـن الواقع يؤكد أن التنـوير يتأخر ، ولايكسـب أى أرضية ، وكأن قانون التاريخ غير فاعل عندنا ، وهو الأمر الذى جعل وكلاء النموذج الغربى يؤكدون على أن القوى الظلامية فى وطننا هى السبب فى إيقاف مسار التاريخ . ولذلك فـالعصور الوسطى لـدينا ممتدة لدرجـة جعلت لها وكلاء فى الحاضر ، يوقفون عجلـة التاريخ ، ويعيقون تقـدم العلمانية والحداثة ، وهى رؤيـة تؤكد بالضرورة أن فى كياننا شيئا متخلفا ومركزيا ومـؤثرا ، لذلك فاحتمال تقدمنا أقل من احتمالات التقدم لـدى الآخرين ، خاصـة الغرب . وبذلك يكـون الغرب أكثر استعـداداً للتقدم ، ونحـن أقل منه استعـداداً ، وهو معنـى عنصرى بلا شك ، وموجه نحو ذاتنا ، من أبناء منا ، هم وكلاء للآخرين .

على الجانب الآخـر ، يقف أتباع التراث ، ليـواجهوا الانقطـاع التاريخى ، مؤكدين أنـه خروج على التاريخ ، وخروج على الديـن والعقيدة . ويتم تفسير الانقطاع بأنه ضـلال ، فالأمة ضلت طريقها ، وخرجـت عن إيمانها . لذلك فهى تتعرض للأزمات والمشاكل . وتلاحقها الأحداث الجسام ، لأنها خرجت عن دينها . والحل الطبيعـى فى هذه الحالة ، هو « العودة» . العـودة للدين ، هى سبيل الخروج من الضلال ، وفيها ومنهـا تعود القيم الأصيلة ، والأخلاق الحميـدة . وبها يـرفـع الله غضبـه ، وتـزول المشكـلات والأزمـات . وفعـل «العودة» ، يفسر الانقطاع التاريخى ، بوصفه « خروجا » عن الأمة ، وديارها ، خروجا رمزيا ، ولكنه خروج كامـل ، يتبعه بالضرورة عودة إلى الأمة وديارها . و« العودة » تتجـه نحو الماضى ، بثوابتـه وإنجازاته ، وتحاول أن تستخـرج من الماضى صـورة مثاليـة تمثل الأمة ، وتشمـل تحققها الكامـل . وبالتـالى تكون العودة إلى ذلـك الماضى ، فى إحـدى فتراته التـى تتصف بـالمثاليـة والكمال . ولكن العودة للماضى رمزية ، لأنه لم يعد موجوداً . والتصور المطروح يؤكد على

أهمية إعادة صورة الماضى المختارة ، وتكوينهـا من جديد ، وإعادة إنتاجها . ومعها ستعـود الأمة والقيم والمبـادىء والديـن . فيحدث اتصال تـاريخى مرة أخرى ، ويتم الانقطاع عن الانقطاع التاريخى ، فيـوصل التاريخ رمزياً ، ثم يسير مرة أخرى إلى الأمام ، ويعود للتطور فى مراحل وحلقات .

وفى رأينا ، أن تصـور وكلاء الغـرب يشوه التاريـخ وقانونـه ، ويؤثـر تأثيراً سلبياً على مقولة الأمة نفسها ، لأنه يعبث بكيابنها ووجودها . فتصور النخب الغربية لـلانقطاع التاريخى يجعله ضمناً أمـرا مرغوبا ، بل هـو بادرة التقدم ، فلأننا انقطعنا عن تاريخنا المظلم لـذلك فإن التقدم محتمل . والمشكلة الوحيدة فى تصور هذه الفئة تكمن فى استمرار قوى الظلام ، أى استمرار جزء لم ننقطع عنه . والحل الأخير سيكون بالتالى فى الانقطاع الكامل ، والذى لا يعنى سوى الخروج عن التاريخ تماماً ، وضياع وجـود الأمة نهائياً ، وهى فكرة مستحيلة ، وفى نفس الوقت مدمرة .

أما مشكلة الرؤى التراثية فليست فى رؤيتها ، لأن الرؤية صحيحة ، فهناك خروج مـا من ثـوابت الأمـة وملامحهـا . ولكن الأفكـار الماضويـة ، والخاصة بإعـادة التاريخ ، أو إحـدى مراحله ، هى رؤى فى واقعهـا شديدة المثـالية . وقـوى الحفاظ على التراث ، متمثلـة فى التيـارات الإسـلامية ، غلبـت عليهـا الرؤى والشعارات المثالية . وهو أمر يكشف عن أن هذه التيارات قامت بدور حمائى ودفاعـى ، فجعلت تاريـخ الأمة وثوابتهـا ، الغطاء الذى يحمـى الأمة نفسها ، ضد الانقطاع والتغـريب . والحماية ضد الانقطاع ـ فى تصـورنا ـ هى أهم فعل قـامت به التيارات الإسلاميـة بكل فصائلها ومكونـاتها ورموزها . فما حدث هو إفراز طبيعـى للمرحلة التى نمر بها . فإذا كانت الثـوابت والتاريخ والأمةنفسها معـرضة للضياع ، فرد الفعل الأول هو الحفـاظ على كيان الأمة .

والحفاظ هنا هـو فعل يؤكد الثـوابت ، وينادى بالعـودة لها ، ويصر على أهمية إعلاء شأنها كما كانـت من قبل . وتصبح وظيفة الحركة على هـذا النحو ، هى التمسك بـالثوابت القـادرة على تحديد روح الأمة وملامحهـا وجوهرهـا . فتعود صورة الأمة من جديد ، ربما فى ثـوب مثالى ، وأيضا فى ثوب متشدد . فيغلب فى هـذه المرحلة ، فعـل « الإفـراط » لأنه فى الـواقـع أداة حقيقيـة فى مواجهـة الانقطاع ، والأهـم أنه فعل أسـاسى فى مواجهة وكـلاء الغرب الذيـن يحاولون جعل الانقطاع ليس مرحلة ، بل النهاية .

إذن نحن بصدد حالة انقطاع تاريخى ، يصحبها حالة تحديد هوية الأمة . والمعركة هنـا تدور مع التاريخ ومن خـلاله ، كما أن المعركة نفسها هـى تاريخنا الراهـن . والواقـع أن أبعاد المعـركة لاتتـوقف على المنطـوق الثقافى والخطـاب الموجه ، فعلى هـذا المستوى الثقافى سنجـد عناصر الحوار والجدل الـذى يصل لحد التراشق ، وفيه يؤكد كل فصيل ليس فقـط صواب أفكاره ، بل أيضاً يؤكد نيـابته عـن الأمة فى صنـاعة مستقبلهـا . وعلى الجانب الآخـر يمكن أن نعيـد اكتشاف ما سبق أن ذكرنا ، لا على مستـوى الخطاب المعلن ، بل على مستوى البناء الحضـارى نفسه ، وقوانين التـاريخ . فحالـة التراشق الثقافى هـى إفراز لحالة اجتماعية وحضارية تمثل الصورة الأعمق لإشكالية الانقطاع التاريخى .

التاريخ لا ينقطع

إن مقولة الانقطاع التاريخى ليست مقولـة مادية ، لأن التاريخ لا ينقطع ، فهو فعـل مستمر دائم ، يتحـرك إلى الأمام . ولكننـا نصفه بصفـات رمزيـة ، فنقول إنه انقطع ، أو إنه يعود للوراء ، أو إنه ساكن لايتحرك ولايتقدم . وكلها أوصاف لحالة الأمة ، وموقفها الحضارى ، وليســت وصفاً للتاريخ ، باعتباره

التسجيل الزمنى لحياة الأمم . فالانقطاع إذن ليس تاريخيا فى جوهره ، بل حضاريا ، فحركة الحضارة هى التى أصابها الانقطاع . ويعنى ذلك أن المنظومة الحاكمة للحضارة ، وجملة المبادىء والقيم الأساسية فيها قد أصابها الانقطاع ، فلم تعد سائدة ومؤثرة ومسيطرة ، بل تراجعت ، وظهر بدلاً منها منظومة أخرى ، قدر لها أن تحوز قدراً هاماً من السيادة والسيطرة على مصير الأمة .

ولكن هذا التصور يحتاج لأبعاد أخرى تجعله واقعيا وتاريخيا . فليس صحيحاً أن الشعوب تعيش فى ظل قيم ، يمكن أن نضعها أو نخرجها أو نغيرها . فالوقائع العلمية تؤكد أن تركيب الأمم أكثر تعقيداً من أى فعل مقصود ، ولذلك فإن ما يحدث فى أى أمة يتبع قوانين وسننا تحدد الممكن والمستحيل .

فإذا كانت قيمنا الحضرية قد انقطعت ، وحلت بدلاً منها قيم أخرى ، فكيف حدث هذا وما هو معناه الحقيقى فى التركيبة الاجتماعية ؟!

نتصور أن أى أمة لها ملامحها الخاصة ، وهى تلك الملامح التى تشكلت عبر القرون الطويلة ، وهى بوصفها المميز للأمة تمثل إفراز الأمة المحقق لتقدمها ، وكذلك المحدث لحالة الرضاء الداخلى والقناعة الجمعية . وعبر تاريخ أى أمة يمكن أن نلحظ ما ميزها ، وكوامنها الداخلية وميولها الفطرية ، واختياراتها الجمعية وتفضيلاتها الطبيعية ، وكلها تمثل فى النهاية الأمة نفسها . أى أن ملامح الأمة وخصائصها ، هى ما شاع وساد تلقائياً ، محققاً الاختيار الحر الملائم الذى تميل له الأمة ، فيحقق سعادتها .

وملامح الأمة بهذا المعنى هى تلك القسمات البارزة والواضحة والشائعة . فليس صحيحاً أن الأمة ـ أى أمة ـ هى سديم متجانس إلى حد التطابق ، ليس فقط بين أفرادها ، بل أيضاً بين جماعاتها . لذلك من ملامح أى أمة هناك

السائد وهو ما شاع واكتسب عمقاً وديمومة واستمراراً ، وهناك غير الشائع والنادر وغير المتكرر ، والذى يتميز بأنه غير أصيل . ففى مقابل ملامح الأمة هناك ملامح هامشية ، ليس لها نفس الوجود ، سواء فى قوتها أو انتشارها . وهى أيضاً لاتعبر عن الميل الفطرى التلقائى للأمة ، بل هى بمثابة الاستثناء الذى يثبت القاعدة ، وهى كل ما ظهر دون أن يحوز إقبالا أو إجماعا من الأمة . وهى أيضاً تلك السمات التى لم تحقق نجاحاً فى الأمة ، ولم تحقق الأمة بها أى ازدهار أو تقدم .

بهذا نصف أى أمة من خلال سماتها السائدة ، مع الأخذ فى الاعتبار وجود سمات متنحية . والسائدة ليست هى الحاكمة بالضرورة ، بل هى الشائعة حتماً . فى حين أن المتنحية ليست هى الخاضعة للسيطرة ، بل هى غير الشائعة . فما شاع فى الأمة أصبح سائدا ، وما لم يشع فى الأمة ، أصبح متنحياً .

والأمة فى ازدهارها تشحذ قيمها ومبادئها ، لتصيغ نهضتها وتقدمها . وازدهار الأمة حضارياً يعنى أنها حققت ماتريده الأمة وتفضله وتميل له . لذلك فالازدهار ـ بهذا المعنى ـ يرتبط بالقيم السائدة والأفكار الغالبة ، والمقدسات محل اعتراف الجميع . بذلك يرتبط الازدهار ـ فى فهمنا ـ بالملامح السائدة للأمة ، محققاً بذلك التواصل مع الماضى بثوابته وملامحه ، ومحققاً أيضاً للتطور التاريخى المعبر عن كيان الأمة وصعودها . بهذا المعنى يرتبط التقدم بحالة تحقق قيم الأمة فى الواقع المعيش فتصبح هذه القيم هى نظام الحياة ، بجوانبه السياسية والأهلية ، والقانونية والأخلاقية . . الخ .

ولكن عندما تمر الأمة بحالة تدهور ، وتفقد قدرتها على النهوض ، وإفعال قيمها فى فعل إيجابى ، تنتابها حالة تدهور داخلى ، فتفقد القيم قدرتها

الوظيفية ، وتتراجـع مكونات المجتمع عـن إفعال تطوره . فيصبح نظـام الأمة السائد هو من قيمها ، ولكنه مصاب بعطب وظيفى . فيختل تماسك الأمة ، وتنهار قدرتها على الصمود ، وتذبل إمكانياتها فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية . وفى هـذه الحالة يصبح وجـود الأمة ، مـرتبطاً باستمـرار السيطرة السياسية أو العسكرية ، أى أنها توجـد دون أن تنهض . ومع تدهور الأحوال يعاد توظيـف قيم الأمة سلبياً . فـأى قيمة أو سمة يمكن أن تـوظف إيجابياً ، وكذلـك يمكن أن تـوظف سلبيـاً . وعندمـا توظـف إيجابياً تحقـق النهضة ، وتحدث الإشباع الفطرى . ولكن عندما تـوظف سلبياً تحدث التدهور الداخلى الذى يقضى على حالة القناعة الداخلية لدى الأمة .

وتصل الأمة إلى الحالة التى تجعلها غير راضية عن نفسها ، مما يخلق صداما بين الأمة وقيمها ، صدامـا لايعنى أن الأمة فقدت قيمها وملامحهـا الأساسية ، بل يعنـى أن تدهور أحـوالها جعلها فى حالة أشبـه بمن أصبح عـدواً لنفسه . فالقيـم الأصلية فقدت قـدرتها على التحقق بالمعنـى السائد ، وبالتـالى فقدت قدرتها على تحقيق الإشبـاع والقناعة لدى الأمـة . ويصبح النظام المميز لـلأمة مستخدما بشكل فاسد وظالم ، لايحقق مـا تتمناه الأمة . مما يسلمها فى النهاية لحالة الضعف والوهن .

عند هذه الحالة نتصور أن الأمة تمر بمرحلة ضعف النظام السائد ، رغم أنه خارج من رحم الأمة نفسها ، وهى حالة تمر بها كل الأمم . فالإنسان يشيخ ، والحضارة تتدهـور . وضعف النظام السائد يسلم الأمة إلى مـرحلة تفكك لأن التدهور مؤد إلى سقوط النظام الحياتى وتحلله ، مما يخلق حالة فوضى فى صلب انتظام حياة الأمة .

ومع سقـوط فاعلية القيم والمبـادىء والسمات الأساسية والأصلية لـلأمة ، وتحلـل نظـامهـا السـائد المعبر عنها ، نتـوقـع أن تظهـر السمات المتنحيـة على

السطح ، وتصبح فاعلة ومؤثرة ، تعبيراً عن عدم انتظام الأمة داخل وعائها الأساسى ، وخروجها عن نمطها الفاعل . ومع ظهور السمات المتنحية رغم استمرار وجود السمات السائدة ، تدخل الأمة مرحلة تفكك وانهيار . فالقيم القادرة على تنظيم حياة الأمة لم تعد مؤثرة وحاكمة ، وإن ظلت شائعة . أما القيم المتنحية ، فيصبح ظهورها واحتمال وصولها إلى قدر كبير من السيطرة على الأمة ، أمرا شديد الأهمية والدلالة تاريخياً .

فالقيم السائدة عندما تحكم تحقق بذلك حكم الأمة بنفسها ، وتصبح الأمة مصدر السلطات ، ويكون الحكم ـ سياسياً واجتماعياً ـ حكم الأغلبية المبنى على الاتفاق والإجماع ، لا بالمعنى السياسى الانتخابى الضيق ، بل بالمعنى الاجتماعى الحضارى الواسع . لأن القيم الشائعة لدى الأغلبية عندما تحكم تحقق بذلك الميل الفطرى والتلقائى للأغلبية فى الواقع المعيش ، وعلى كل المستويات السياسية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية ، مما يجعل الأمة نفسها فى حالة تحقق . وأيا كان الموقف السياسى من الحاكم ، فإن الأمة حال سيادة قيمها الأصيلة ، تملك زمام نفسها ، وتجد أحلامها وآمالها قيد التنفيذ على كل مستوى . وبذلك يتحقق من خلال تسييد القيم الأصيلة تسييد الأمة نفسها ، باعتبارها مصدر القيم ، وبالتالى مصدر الشرعية والسلطة . ولكن عندما تتجه الأمة إلى التدهور ، ويعاد توظيف نظام قيمها سلبياً ، تمر الأمة باللحظة التى تتحول فيها قيمها إلى قيد مفروض عليها ، وباسم الأمة نفسها ترتكب الأخطاء والمفاسد فى حق الأمة . وهنا تستغل الأمة فى فرض حكم ظالم عليها . وتصبح مقولة أن الأمة مصدر السلطات مقولة حق يراد بها باطل . فمن خلال « استخدام » وربما « استغلال » قيم الأمة ومرجعيتها ، يفرض عليها ما يجعلها تتدهور ، وتعيش الظلم والمفاسد ، حتى تفسد حالتها وحياتها .

أما القيم المتنحية والتى يأتى دورها بعد تدهور حال الأمة ، فتمثل الصورة التاريخية الفارقة مع القيم السائدة . ففى حال التدهور يتاح للقيم الهامشية أن تنمو ، وتأخذ أدواراً ليست لها ، وتصعد بحامليها إلى مصاف ليس منهم وليس لهم . مما يقلب منظومة القيم عكسياً ، فيصبح السائد متنحى من حيث مصادر القوة ، ويتحول المتنحى إلى سائد من حيث السيطرة . معنى ذلك أن صعود القيم المتنحية يربط بين قيم ليس لها وجود أصيل ، وبين السيطرة والحكم والسلطة . مما يؤدى إلى نزع عنصر القوة والسلطة من القيم السائدة .

وهذه الحالة نصفها بأنها تمثل حكم الأقلية مجازاً . فالأغلبية بقيمها أصبحت مغلوبة على أمرها ، وربما مهانة بسبب تدهور نظامها ، وإلصاق المفاسد به . أما الأقلية المختلفة فى القيم ، والمتميزة بكل ما هو هامشى فى الأمة ، فإنها تصعد درجات الحكم ، وتفرض قيمها على الأغلبية ، مما يجعله حكم القيم الهامشية ، وبالتالى حكم الأقلية . وتفقد الأمة دورها تماماً ، فلم تعد مصدر السلطات ، ولم تعد قيمها هى الحاكمة . وبالتالى لن تتحقق للأمة ميولها الطبيعية والفطرية ، بل يفرض عليها نظام حياة معادٍ لها ، يقتل تفضيلاتها ، كما يقتل أحلامها وآمالها . وتسود القيم الهامشية ، قصراً على الأمة فهى ليست اختياراً ولن تكون كذلك ، مما يؤدى إلى تلك المنظومة القيمية المعكوسة ، حيث السائد محكوم ، والهامش حاكم ، وهو أمر مفض إلى تفكك الأمة ، فيما نعلم .

بهذا المعنى والتصور نرى أن الانقطاع التاريخى ، هو دورة حياة طبيعية تتكرر لدى الأمم ، حيث تفسد الوظيفة الإيجابية لنظام الأمة السائد ، فيتم تنحيته ، ويظهر نظام هامشى من داخل الأمة يفرض سلطته اغتصاباً على الأمة وقيمها معاً . فالانقطاع هنا هو انقطاع سيادة قيم الأمة على مصير الأمة ،

بوصفها نموذج حكم وحياة ، ونظاما قانونيا وأخلاقيا . وبالتالى يؤدى الانقطاع إلى ظهور نمط مغاير للأمة مختلف معها ومفارق لمعاييرها ، ويصبح هذا النمط هو الحاكم ، من خلال أقلية تنتمى لهذا النمط الهامشى ، وتفرض سيطرتها على الأغلبية ونمط حياتها وقيمها . فينقطع حكم روح الأمة إن جاز التعبير ، لتحل روح غريبة عن الأمة ، وتغتصب الحكم لنفسها ، ولأقلية تعبر عنها ، فتنتزع حقوق الأمة ، ويصبح ما كان هامشياً فيها حاكماً ، بدون شرعية أو اتفاق أو إجماع .

حكم الأقلية

حسب التصور السابق ، نعتقد أن الحضارة العربية الإسلامية ، أصابها الوهن والضعف مع اقتراب القرن الثامن عشر على نهايته ، أوقبل ذلك . وفى تلك الفترة حدث ما نسميه رمزاً الانقطاع التاريخى ، ونعنى به انقطاعات عن قيمنا ومبادئنا ومقدساتنا . وهو انقطاع عن التطور ، وأيضاً عن السيادة والسلطة . فتنحية روح الأمة عن موقع الصدارة أفقدها سلطتها النابعة من الأمة ، وأيضاً أفقدها فرصة التطور ، والحقيقى أنها لم تكن فى حالة تطور للأفضل ، بل فى حالة تراجع وظيفى سلبى ، أشاع الظلم والمفاسد .

ورغم أن البعض يعيد تدهور الحضارة العربية الإسلامية إلى تواريخ سابقة، إلا أننا نتصور أن ما سبق القرن الثامن عشر ، كان كبوات تقوم بعدها الأمة وتستعيد عافيتها . ولكن ما حدث فى القرن الثامن عشر كان السقوط الذى لم يعقبه قيام آخر ، أى كان الكبوة الأخيرة . وفى لحظة الانقطاع هذه ظهرت قوة الغرب ، بكل إنجازاته ، وسطوته ، وقوته العسكرية الناشئة والمتطورة والفاعلة بسرعة فائقة . أمام هذا التحدى الحضارى الخارجى ، لم

تكن الأمة قادرة على الصمـود ، لأنها لم تكن فى حالة ازدهار وقوة ، بـل كانت فى حالـة تراجع وتدهـور . وهنا أصبح هنـاك تحدٍ خارجى ، يغذيـه الضعف الداخلى ، ليحدث اللقـاء بين وافد يفرض نفسه وبين قيـم مهمشة فى الأمة ، وجدت فرصتهـا لتصل إلى الحكم ، على أسنة رماح الغرب . فهـل هذا تصور يجاوز الحقيقة ؟ لا أظن ذلك .

فمثلا لقد قدم إلينا الوافد الغربـى بقيمة الحرية الفردية المتجاوزة للمقدس ولكل القيود . والحرية الفردية ، قيمة متنحيـة فى الحضارة العربية الإسلامية ، لذلـك فمن يتبنـاها هـم قلة . ونتصـور أن هذه القيمـة وجدت نفسهـا ، فى التاريخ الثقافى للأمة ، باعتبارها تيـارا هامشيا متنحى . فكانت الإباحية هى الاستثناء ، والالتزام هو القاعدة . ولكن مـع تدهور حال الأمة أصبحت مثل هذه القيم تجد متنفسـا لها فى ضعف الأمة . وكذلك تجد لها ما يبررهـا من قيم الوافد . فالغـرب المبهر يقدم قيمة الحرية الفرديـة المتجاوزة للمقدس ، وأيضا يقدم إنجازاته ، وقوته العسكرية . وفى نفس الوقت ، يجد من بين أبناء الأمة ، قلة تميـل لهذه القيمة . وفى منـاخ من تـدهور النظـام الأساسـى للأمـة تلتقى القيمة الوافدة ، محملة بقوة الترغيب والترهيـب ، مع قلة تؤمن بها ، فتقدمها للأمة مبررة بتقـدم صاحب القيمة ، حتى يـرتبط التقدم بالقيمة الـوافدة . ثم تبدأ عمليـة زرع القيمة بين أبناء الأمة ، وأيضـا محاولة جعلها قيمة حـاكمة لها قوة القانون .

وفى النهاية سنجد أن مشهد الأمة ـ من وجهـة نظر وكلاء الغرب ـ يؤكد أن بها قيما « متقدمـة » رغم سيـادة التقليدية والـرجعية ، وهـو ما يعنـى أن القيم الوافـدة كانت ومـازالت قيم أقليـة ، ولم تتحول إلى قيـم أغلبية . وهنا نـرصد الصخرة التى تتحطم عليها محاولات التغريب . لأن التغريب يعتمد على أقلية

تميل لقيم مخالفة لقيم الأمة . أو يعتمد على بعض القيم المتنحية داخل الفرد نفسه ، فى مواجهة القيم الحاكمة والشائعة لدى نفس الفرد . فهو إذن عمل يرتكن على المتنحى والهامشى ، وأحياناً يتمثل ذلك فى فرد أو جماعة ، أو مجرد جانب من حياة فرد أو جماعة . وهو ما يتأكد من خلال وجود بعض «المتغربين» أصحاب الخطاب الغربى ، الذين تلاحظ أن سلوكهم الحياتى عربى وإسلامى فى جوهره . معنى ذلك أن القيم الوافدة لم تحتل إلا جزءا من الفرد نفسه . وغالبا ما يكون هذا الجزء هو الخاص بالعمل والمهنة . لأن السائد فى الأعمال والمهن الآن مبنى على القيم والإنجازات الغربية ، خاصة المهن العقلية والعلمية وهكذا .

إذن التدهور الحضارى الذى عشناه أخرج القيم المتنحية ، والقوة الغربية المهيمنة ، حولت أصحاب هذه القيم ، أو حولت المساحة التى تشغلها هذه القيم إلى مساحة للوكالة عن الحضارة الغربية ، وبذلك توحد الهامش الداخلى ، مع الوافد المستورد والمفروض من الخارج ، ليخلقا جماعة هامشية ومجتمع أقلية ، تسود فيه قيم غريبة ووافدة وهامشية ، ويتحول ذلك المجتمع الداخلى صاحب القيم الوافدة ، إلى منظومة حكم ونظام سلطة ، فيفرض بذلك القيم الهامشية من خلال حكم أقلية ، مستنداً على الضعف الداخلى ، والدعم الخارجى .

ومن خلال تحالف القوى المهيمنة الغربية مع الهامش الداخلى ، تكون تحالف الحكم الذى بات يحكمنا ويحكم أمتنا ، منذ القرن التاسع عشر ، وحتى الآن مع نهاية القرن العشرين . ولقد وضع التحالف جدول أعمال التاريخ ، عبر تلك السنوات الطويلة . ورغم تغير ملامح التحالف إلا أن جوهره واتجاهه واحد فى الأغلب الأعم . فهو تحالف عسكرى مبنى على

الاحتـلال ، أو سيـاسـي مبنـي على الهيمنــة ، أو ثقـافي مبنـي على الغـزو . والفصيل الداخلي من التحالف ، هم عمـلاء في حالة التواطؤ الصريح المخل بالأمن القـومي ، خاصة جـوانبه العسكرية ، أو هـم وكلاء في حالة التـواطؤ الضمني مع الوافد الثقافي ، والتمهيد للهيمنة الثقافية والإبادة الحضارية .

وفي ظـل حكم الأقليـة ، سنجد مستـويات عـدة للتحالـف مع الفكـرة الغربية . فهناك التحالف المهني ــ كما سبق أن أشرنا ـ ومنه تخرج فئات تتعلق بالمنجـز الغربـي لأنها لا تملك غيره ، ومـن خلالـه تضطر إلى اللجـوء للغرب كمصدر للمعـرفة الفنية والبرامـج العملية . وهنـاك التحالف الثقـافي ، وهو الأخطر ، لأنه هـو سبب التحالف المهني والفنـي ، فيما نظن ، لأن النخبة في هذه الأمـة غلب عليهـا اللجوء للغـرب ، وأصبحت تقـوم بدور الـوكالـة عن الغرب ، ثقافياً ومعرفياً ومهنياً . ولأن النخبة منوط بها قيادة عقل الأمة ، ولأنها نخبة «وكيلـة» ولا نقول «عميلة» ، لذلـك فإنها تقود عقل الأمـة تجاه المنجز الغربـي ، باعتباره هبة مـن الغرب لنا ، فنـأخذ المنجز الفني والتقنـي ، ومعه نبادل قيمنا بقيمهم .

لهذا فوكلاء الغرب الثقافيون ، أصبحوا نخبة لاتبدع للأمة ومنها ولأجلها ، بل أصبحوا قـوة ناقلة لقيم الغرب ، مـؤكدة للقيم المتنحية من حضـارتنا . مما أفقد الأمة الكثير من الفرص كي تنهض مـرة أخرى . فتحقق بذلك حكم قيم الأقلية ، من خلال أقلية ، وفي مواجهة قيم الأغلبية والأغلبية نفسها .

أهمية هذه الفكرة أنها مرحلة تتجاوز التدهور الذي تعاني منه كل الشعوب وتتجاوز الانقطاع عن القيم الشائعة ، والتي تمر بها كل الشعوب ، إلى مرحـلة شـديدة الخطــورة ، وهـي تجسـد فعل «التفكيـك» للأمـة بوصفـه جـدول أعمال حكم الأقليـة المنـوط بها الوكـالة عـن الغرب ، والتي أتيـح لها السيطرة

على مقــدرات الأمــة ، تحـت حمــاية الســلاح ، وبالتواطــؤ مع النفــوذ الغـربى .

وجدول أعمال التفكيك يعنـى أننا اليوم ومنذ عشرات السنين بصـدد عمل منظم مقصـود ، ومدفوع من السلطـة الحاكمة نفسها ، يهدف إلى فـرض نظام قيم ، هو فى الواقـع النظام الهامشى المتنحى من حياتنـا ، والمخالف لقيمنا ، على حساب الأمـة وقيمها . ويصبح ظهور الهامشـى والمتنحى ، ليس تلقـائيا وناتجا عـن حالـة التدهور ، بـل مقصوداً ومخططاً ، وكـذلك لا يصبـح حكم الأقلية حالـة عرضية مؤقتة ، بـل حالة المطلوب استمرارهـا تحت حماية الغرب وتمويله وسلاحه ، والنظـم الداخلية وإمكانياتها وأمنها ، ومـن خلال عصب عملية التغريب ورأسه المدبر ، نعنى وكلاء الغرب الثقافيين .

فهل يمكننا تصور معنى ودلالة ذلك ؟

أولاً : إن صـح تصـورنـا الســابـق ، فـالجارى الآن فى قلـب أمـة العـرب والمسلمين هو حكم أقلية بنموذج قيم وافـدة . وهو مفض فى النهاية إلى إرساء قواعد نظام مغاير تماماً لنا .

ثانياً : ما يحدث هو فرض لقيم ليسـت من الأمة ، وبالتالى لاتحقق إشباع الأمة ، ولا اتفاقها ولا إجماعها .

ثالثاً : ما يفرض هو قيم ، الشـاهد التاريخى يؤكد أنها غير محققة للتقدم ، والازدهار فى أوطاننا ، وإن كانت محققة لهما فى أوطان أخرى .

رابعاً : حكم قيم الأقلية فى حد ذاته يعنى سيطرة قيم « مرفوضة » على قيم « مرغوبة » وهو ما يعنى اغتصابا للسلطة من الأمة ، ونزع قيمها من حياتها .

خـامسـاً : قلب منظـومـة القيـم بهذا الشكـل يؤدى إلى تفكيـك الأمـة ،

وإدخالها فى صراع قيمى بين نظام « مرفوض » حاكم ، ونظام « مرغوب » محكوم .

فإذا كان التدهور قد قاد إلى حالة تفكك وظهور لقيم غريبة عن المجتمع ، فإن تسييد هذه القيم الغريبة من خلال حكم الأقلية غير الشرعية كقيم ورموز، يمثل عملا منظما لتفكيك الأمة ، ويصبح الانقطاع التاريخى ، فعلا مقصودا ومخططا ، وليس نتاج حالة تدهور تمر بها كل الشعوب ، فالمستهدف الآن ـ كما أشرنا ـ تحويل الانقطاع التاريخى إلى استمرار تاريخى . بمعنى أن الوعى الثقافى لدى النخب المتغربة يعيد قراءة تاريخنا من خلال فرضية أن القيم التى نظن أنها سائدة ومقدسة لدينا ، هى قيم تدهور وظلامية . أما القيم الغريبة والهامشية فتعاد صياغة تاريخها لتصبح هى القيم الأصيلة وبالتالى يصبح صعود القيم الهامشية هو مرحلة النهضة ، وبهذا فإن سقوط منظومة القيم الشائعة لدى الأمة هو هزيمة للتخلف .

والقضية ليست فقط إعادة قراءة التاريخ ، بل هى تشويه الوعى وتزييفه ، ثم إفعال خطة التغريب تحت مبررات واهية وفاسدة ، وتأكيد حكم الأقلية . وطرح تصور عن تخلف الأمة (الأغلبية) وتقدم النخبة (الأقلية) مما يجعل الأخيرة تقود الأولى ، وتسيطر عليها .

وبهذا تتحقق عملية « غسيل مخ » جماعى ، يتم فيها إضعاف إيمان الأمة بمقدساتها وقيمها ومبادئها ، من أجل جعلها تشك فى نفسها ، وتتصور أن ما فيها تخلف ، فتعادى نفسها ، ثم تفرض عليها القيم الوافدة الغريبة عنها ، باعتبار أنها القيم الوحيدة المنتجة للتقدم ، ثم تصبح هذه القيم هى جواز المرور للأقلية الحاكمة ، ويتجمع الترغيب والترهيب ، المال والسلاح ، فى عملية تفكيك مقصود وانقطاع تاريخى منشود .

التفكيك : الممكن والمستحيل

إذا ركزنـا النظر تجاه مـا يحدث الآن ، فى حكم لقيـم هامشيـة ، وجماعات وأفراد يمثلون الأقلية ، لنا أن نسأل عن أثر ما يحدث . فهل الانقطاع التاريخى يمكن أن يتحول إلى نتيجة نهائية ، ومن ثـم تتحول القيم الهامشية والوافدة إلى قيم شـائعة وسـائدة ؟! باختصـار هل يجوز التغـريب تـاريخياً ، وهـل ينجح عملياً؟ والسؤال يحمل فى طياته أيضـاً أسئلة أخرى ، منها هل نقبل أن يحدث تغريب كامل للأمة ؟ وهل نرضى أن نضحى بقيم الأمة ؟

المشكلة مركبة فى الواقع ، فهـى استفهام عن الممكن واحتماله ، وفى نفس الوقت استفهام عن موقفنا من ذلك . والتـوقع ـ كما نقول ـ يختلط بالتمنى ولا مفر من ذلك !!

ولكن قواعد التاريخ والجغرافيا وسوابق حياة البشر ، لم تخبرنا حتى الآن بأن انقلاب منظومـة القيم لأمة ما جـائز أو ممكن . فلا الفرعـونية فى أوج عظمتها صارت معبرة عن قيـم العالم كله . ولا اليونـانية ، ولا الرومانيـة ، ولا العربية الإسلاميـة ، فهل يمكـن أن يحدث ذلك مع الحضـارة الغربيـة المعاصرة ؟ لا نظن .

لأن قواعـد التاريـخ أكدت أن لكـل حضارة مجالها الجغـرافى ، وحدودهـا المناخية . فالحضارة وليدة التركيب المعقد لتفاعل المكان والإنسان عبر الزمان ، لذلك فإن كل حضارة ظلت نشطة وفاعلة فى حدود جغرافية ، تتسع أو تضيق فى نطاق محدد . لذلك فالحضارة نبت يحتاج لعناصر التربة والمناخ ، ولايمكن استـزراعها فى تـربة مغـايرة ، ومنـاخ مختلف . ولا نظـن أن الهندسـة الوراثيـة والأساليـب الاصطناعية صـالحة فى حالتنا هذه . فـلا نعلم أن هناك إمكـانية لتخليق حضارة فى « صوبة » صناعية وتربة معالجة ومناخ مصنوع . ولا نعتقد

أبداً أن ما ينفع مع الزرع والحيوان ينفع مع الشعوب ، فبقدر ما للجغرافية من كيان مستقل لايمكن الإخلال به ، بقدر ما للشعوب من كيان مستقل طبيعى ، لا ينفع فيه اصطناع أو تصنع ، وكما يقال فالطبع يغلب التطبع .

معنى ذلك أن قيم الأمة هى وليدة المكان والإنسان ، وتستمر عبر الزمان ، ولايجوز فيها التخليق والتصنيع . وبالتالى فإن القيم الهامشية عندما تحكم تظل هكذا هامشية . ورغم ما تملكه من سلطة وجاه ونفوذ ، وما تحوزه من مال وما يتاح لها من سلاح يحميها ، إلا أنها تبقى قيما هامشية تتعلق بأقلية ، وتظل حكماً للأقلية ، على غير قناعة من الأغلبية . فهى جسم غريب هامشى ، فى مصدرها ومنتهاها .

لذلك فالحداثة فى أمتنا العربية الإسلامية هى حكم مفروض ومدعوم من أقلية ، هم وكلاء الغرب ، سواء عن قناعة بقيم الغرب ، أو استسلام لسطوة الغرب . وهو أمر بادٍ للعيان ، فرغم سنوات التغريب ـ أقصد التحديث ـ فإن شيئاً لم يتحقق على أرض العروبة والإسلام . وكما يقول غلاة التغريب ، فإننا نرجع إلى الوراء دائماً ، وفى الواقع ترجع الأمة إلى قيمها كل فترة وأخرى .

فقيم الأمة باقية وحية ، تنبض دائماً ، والفرق أنها تظهر أحياناً غاضبة ، وتتوارى أحيانا أخرى . فتاريخ الحداثة لدينا لحظات يظن فيها وكلاء الغرب أنهم حققوا انتصارهم النهائى ، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك ، لأن اللحظات التالية للانتصار الوهمى يعقبها صعود واضح ، وربما غاضب للقيم الأصيلة فى التراث . مما يؤكد أن الحداثة لم تفعل فعلتها بعد ، ولم تُزرع فى قلب الأمة ، وأنها مازالت قيما هامشية .

لذلك فإن الواقع ينحصر فى صورة السلطة المغتصبة المفروضة على الأمة ، سواء السلطة بوصفها القوة السياسية ، أو النخب المسيطرة على صناعة

الوعـى، أو فى مضمونها الحقيقى بـوصفها القيـم الهامشية والوافـدة . وتلك الحالة تضـع قيم الأمـة فى حالـة تشبه الأرض المستعمـرة ، فالأمـة مستعمرة ، عقلها وقلبها مستعمران . وعندما تميل الأمـة للاستسلام تظهر القيم الهامشية وكأنها انتصرت ، وعندمـا تخرج من الأمة موجات الغضب ، يبـدو وكأن شيئا من الحداثة لم يكن .

ولكن الصورة بدأت تتغير كثيراً ، لأن قيم الأمة خرجت فى قنوات عديدة ، وفى شكل متـوالٍ ومتتالٍ ، محققة بـذلك لحظة دفـاع حقيقية ، وبدايـة إحياء منظورة ، وجـذور نهضة مرتقبـة . ومع تـوالى سنوات القرن العشريـن ، ومع العقديـن التاسع والعـاشر منه ، بات واضحـاً أن الأمة ملكت زمـام قيمها ، وبدأت تفرض معاييرها الخاصة على الجميع .

لهذا نظن أن التغريـب غير ممكن ، والحداثة كذلك ، وبالتـالى فإن تسييد القيم المتنحيـة فى أمة على قيمهـا السائدة غير ممكن أيضـاً . ومثله مثـل القيم السـائدة والمتنحية فى جينـات الـوراثة فى الإنسـان ، فالعـلاقـة بينها يحكمهـا قانـون، وانقلاب العلاقـة من المحـال . ولهذا فالصفات الجسمانيـة فى شعب يحكمهـا السائد والمتنحـى ، فنجد لكـل شعب مـلامحه الجسمانية الخاصـة ، وهناك دائماً أقليـة مختلفة . ولأن الشعـوب غير خاضعـة للتجريـب المعملى ، والتصنيع الآلى ، لذلك فهى نتاج قانونها ، وستظل كذلك .

فإذا كان التحديـث الذى هو تغريب لن يبدل الحضارة العـربية الإسلامية بالحضارة الغربية ، بالنسبة لهذه الأمة ، فماذا فعل ويفعل ؟!

نعم إن تنميـط الحياة العربية الإسـلامية على النموذج الغربـى مستحيل ، ولكن هذه المحاولة التى قاربت على إكمال قرنها الثانى ليست بلا تأثير ، بل إن تأثيرها متشابك ومعقد . فهى عملية منظمة لتسييد نموذج قيمى مغاير ، لهذا

فهى عائق أمام صعود النموذج القيمى الأصيل ، ومعوق للنهضة ، والدخول فى مـرحلة ازدهـار جديـد . ولأنها تحالـف بين الغرب ووكـلائه ، فهى تملـك رصيدا هـائلا من القـوة المدعومـة بالغـرب المتقدم ، مما يجعلها فعـلا موجهـا «بعنف» إلى الداخل ، ومرتكنا على ما يملكه من أدوات ، وتدعيم الغرب له ، ففعل الحداثة الوافد هو فعل عنيف مسلح ، يفرض نفسه بالقوة ، وإن تغيرت ملامح عنفه وهوية سلاحه ، من استعمار خارجى ، إلى استعمار داخلى ، ومن جيش أجنبى ، إلى أمن محلى .

وفرض الحداثة يشوه الوعى ، ويخلـط الأوراق ، فينسب للغرب التقدم ولنا التخلف ، ويؤكـد على أن « التقدم » مضمون وأنه عالمى كوكبى . وكل تلك الأفعال محبطـة للأمـة ، والأهـم أنها تعيـق الأمة عـن النهضة . فيبقـى مشروع النهضة بلا تـدعيم ولا مؤسسات ، بـل يبدو وكأنه معـادٍ للسلطة . ويصبح التراث حبيـس تاريخه ، وتجيـش الجيـوش ضـده ، فلا ينهـض إلا إذا ثـار . ويـؤدى ذلـك بـالضرورة ، إلى إغـلاق الأبـواب حـول التراث ، ومنعـه مـن الاحتكـاك والتحقق . وهـى أمور تـؤدى إلى مزيـد من الجمـود التراثى الـذى يتحول لسبـب لدى وكلاء الغرب لإعـادة الهجوم على التراث . وهكذا يتـزايد الهجوم على التراث ، فيتزايد التراث جموداً .

ومـن تلـك الـدائرة ، يتفجـر التراث غضبـاً ، ويتحـول إلى عنـف وتمرد واحتجاج . وتتطور دائرة الهجوم والدفـاع ، إلى دائرة العنف والعنف المضاد . وبـذلك تتراكـم مـراحل صـدامية فى تـاريـخ أمتنا ، تـزيـد عملية الانقطـاع الحضارى تعقيداً ، لأنها تضيف عليهـا عنصر الصراع فيصبح وصل الحضارة وإحياؤها فى مواجهة عملية تدعيم الانقطاع ، بداية لحرب أهلية . لكن الأمر لايقف عند هـذا الحد ، فالأمر ليس صراعاً بين طـرفين فقط ، لأنه فى الصراع

وقبله وبعده هناك حياة يومية مستمرة ، تفعل فعلها فينا وبنا . وهذا هو الجانب الأخطر من حكم الأقلية الهامشية والمتغربة ، لأنها تملك زمام السلطة ، وتفرض فكرها ، وقانونها ونظامها ، وهى بذلك تخلق وضعا قانونيا لنظام قيم غير شرعى . وهذا الفعل نرى أنه فعل تفكيك وتدمير وهدم . أى أنه ليس كما يظن أصحابه فعل تحديث وتقدم وتطوير وتنمية ، لأنه غير مفضٍ إلى الحداثة التى هى التغريب - كما أشرنا . ولأن برنامج العمل التغريبى غير ممكن تاريخياً وجغرافياً ، ولأنه معادٍ لقوانين الطبيعة ، لذلك يؤدى هذا البرنامج إلى نتائج معادية للأمة ، وفى نفس الوقت غير محققة لأهداف وكلاء الغرب . وباختصار ، فالكل يخسر ، والأمة تخسر نفسها .

وعلى سبيل المثال ، إذا لم تستطع غرز قيمة الحرية الفردية ، بوصفها مولدا للإبداع والتنافس والتقدم ، فإن الحادث هو حرية فردية ، منافية لقيم الأمة الجماعية ، ومحققه للفوضى . وهذا ما نلاحظه كثيراً ، ولكن البعض فقد البصر والبصيرة . فنحن نقول إن الديمقراطية فشلت لدينا ، لأننا شعب غير ديمقراطى ، ولم يتربَّ على الديمقراطية . نعم نحن شعب غير ديمقراطى ، ولم نتربَّ على الديمقراطية . ولكننا لسنا شعبا ديكتاتوريا ، لأن أمتنا لاتفهم الديمقراطية ، بوصفها أحزابا تتداول السلطة ، نيابة عن الأمة ، ومن خلال لحظة تلاقٍ وحيدة هى الانتخابات. وكذلك لانفهم أن تكون الأحزاب حائزة للسلطة من خلال دعم « أفراد » لها حسب عدد الأفراد ، وهذا لايعنى أننا شعب متخلف ، أو أن الأصل فينا سيىء ، وأننا نعشق الظلم وحكم الفرد ، إلى آخر هذه القائمة من الاتهامات .

والقضية ببساطة أن لنا تصورنا عن الظلم والعدل ، وبالتالى لنا أساليب لممارسة العدل . ونفهم الحياة السياسية حسب قيمنا المرجعية ، بأنها تعدد

سياسى لجماعات سياسية ، تحوز كل منها قدراً من السلطة بقدر حجمها ودورها وانتشارها . وفى تعددية الجماعات السياسية ومشاركتها فى القرار السياسى وضع إنسانى إيجابى ، لايقل عن الديمقراطية على معيار الإنجاز البشرى ، إن لم يزد عليها .

إذن ، ما يحدث الآن أننا لم نحقق الحرية الفردية ولا الديمقراطية . كذلك لم نستطع إنهاض قيمنا وتحقيق الحرية الجماعية والتعددية . فالنموذج الوافد لم يتحقق والأصيل لم ينهض ، والنتيجة أن الحرية أصبحت فوضى ، والديمقراطية ديكتاتورية . أى إن نموذج الحداثة المتحقق لدينا يظهر فى سلبياته دون إيجابياته . والأدق أنه يتحول إلى فعل سلبى مدمر للأمة ، دون أن يحقق لها شيئاً . فالحرية الفردية ، تحطم تجانس الأمة ، وتفكك جماعاتها . وبالتالى فهى فعل لايقيم شيئاً جديداً ، وفى نفس الوقت يحطم القيم الأصيلة للأمة .

لهذا نتصور أن زرع النموذج الغربى مستحيل ، ولكن تفكيك النموذج العربى الإسلامى ممكن . وإن كان لهذه الإمكانية حدود ، بمعنى أنها لن تؤدى إلى الإبادة الكاملة ، ولكنها تؤدى إلى إبعاد الأمة عن نهضتها ، لتزيد من مرحلة الانقطاع ، وتعيق التواصل ، وتحدث تدميرا فى كيان الأمة ، يجعل حلم النهضة يفارق عيون الأمة .

حكم الأقلية الحضارية

تواجه الأمة فى حاضرها وماضيها القريب ـ كما سبق أن أشرنا ـ ما يمكن أن نسميه حكم الأقلية الحضارية ، أى حكم قيم حضارية مغايرة . وقد نتج هذا من عاملين : الأول هو الاستعمار بكل أشكاله ، والثانى هو ضعف الأمة وتدهور حالها . والخارجى مع الداخلى يتفاعلان ، وكل منهما لا يؤدى إلى الوضع الراهن المتأزم بمفرده . فالاستعمار يتأكد بالقابلية للاستعمار ، والهيمنة الحضارية تعضدها القابلية للهيمنة .

والإشكالية الراهنة تكمن فى سيادة النمط الغربى ، بالدرجة التى تجعله الحاكم وصاحب السلطة ، والمؤيد بالقوانين . فالنمط الغربى رغم أنه لا يعبر عن الأمة ، إلا أنه صاحب السيادة ، لحد أنه أصبح يمثل نظام الحياة الرسمى . والخروج من سيادة النمط الغربى فى تصورنا أمر معقد للغاية لأنه نمط مفروض ، ومدعوم من مصادر متعددة . لذلك فإن تفكيكه والخروج من أسره ، عمل نهضوى وثورى فى آن واحد .

ويكمن التحدى الحقيقى أمام الأمتين العربية والإسلامية فى مدى قدرتيهما على إنهاض نمط حياتيهما الخاص ، ليصبح سائداً وحاكماً. ولكن العوائق أمام إنهاض الأمة فى تعددها وتشابكها تجعل هذا التحدى يصل بنا إلى مرحلة جد خطيرة . ويدفع ذلك قوى من الأمة إلى إعلان غضبها وتمردها اللذين يصلان لحد دموى .

فحكم الأقلية الحضارية يعنى أن أصحاب القيم والأفكار والمعارف غير السائدة فى الأمة ، هم أصحاب السلطة والحكم . وكذلك فإن أصحاب الفكر الغربى هم الذين يتقلدون موقع النخبة . وهذا الوضع فى تصورنا هو نوع من العنصرية الاستعمارية ، لأن صاحب القيم الوافدة يتقلد مناصب حاكمة ومؤثرة ، ومن خلاله يتم فرض استعمار قيمى على الأمة . وفى نفس الوقت يعنى هذا أن القيم الوافدة ، تحتل مكانة أهم من القيم الأصيلة ، وفى ذلك عنصرية لا شك فيها .

ويتحقق من خلال ذلك نوع جديد من الاستيطان ، فهو ليس استيطانا لغرباء ، بل استيطان الأفكار الوافدة فى عقل وكلاء محليين . مما يجعل الصراع فتنة بين أبناء الأمة . وهى فتنة بقدر إحساس الأمة وطليعتها الحقيقية . إن القيم الوافدة لها مكانة ، والقيم الأصيلة مهمشة . وهو ما يولد الشعور بالغبن ، ويدفع إلى الغضب أو اليأس . ويتحقق حكم الأقلية الحضارية من خلال العديد من الآليات التى تم زرعها فى الأمة ، ومازال يتم زرع غيرها ، حتى تظل الأقلية الحضارية حاكمة ، بفعل وسائل منظمة ، تنتج كل يوم أعضاء جددا لهذه الأقلية ، حتى يتم تجديدها وضمان استمرارها . وتلك الآليات فى الواقع تمثل المشكلة الرئيسية التى تجعل الصراع بين الموروث والوافد يمتد من مجال الحضارة ، وحتى السياسة ، إلى أن يصل إلى حياتنا اليومية .

وأكبر تحدٍ تثيره آليات تشكيل حكم الأقلية الحضارية هو التعليم ، فنظام التعليم الحالى يروج لمعارف غربية ، سواءً على المستوى الفنى العملى ، أو على المستوى النظرى المعرفى . وحتى المستوى الفنى ، فإنه يقدم من خلال رؤى معرفية ضمنية متحيزة للحضارة الغربية . وآلية التعليم بهذا المعنى تنتج تحيزات لحكم الأقلية الحضارية ، بدلاً من أن تنتج طلائع لنهضة الأمة .

صحيح أن خريجى التعليم ليسوا بالضرورة متغربين ، ولا وكلاء للغرب ، ولكن هم على الأقل معرضون للتشوه الثقافى والتداخل المعرفى .

ومن التعليم تخرج أجيال من أساتذة الجامعات والباحثين والعلماء ، حيث يتم تنميطهم على نموذج معرفى غربى . وتتفاقم المشكلة تحت مظلة « العلم » ، فتتحول كل طاقاتنا العلمية نحو إعادة إنتاج النمط الغربى . ويتأسس العلم على « الاقتباس » من المرجع الغربى . ويتراجع الإبداع الحر ، خاصة الإبداع الأصيل النابع من ثقافة الأمة . فتصبح الآلة التعليمية العلمية منتجة لنماذج مقلدة لما ينتجه الغرب . فتشوه بذلك جزءاً هاماً من الجانب المعرفى لدينا .

وعندما يصبح البحث العلمى ـ المؤسسة والتمويل ـ غربى النزعة تماماً ، تتحول آلة إنتاج المعرفة الغربية إلى آلة منتجة لصورة مزيفة عن الأمة ، صورة من شروطها تأهيل الأمة لعملية التغريب ، وتبرير ذلك بتشويه الصورة الأصيلة للأمة . والأهم من ذلك أن مؤسسات العلم بتوجهها الغربى ، وتمويلها الغربى تفتح المجال أمام أصحاب المعرفة الغربية ، وتغلقه أمام أصحاب المعرفة العربية الإسلامية .

ومن التعليم والجامعة خرج طابور طويل من الخبراء (التكنوقراط) حاملين برامج ورؤى غربية جاهزة . ومع تحول نظام الحكم للاستعانة بالخبراء كوزراء ، أصبح تشكيل الحكومة فى حد ذاته معتمداً على خبرات غربية ، أدت إلى إنتاج سياسات وقرارات مستوردة ، وفرضها على الأمة . ونلاحظ أن « الخبير » الذى يحلم بالرقى ويحركه الطموح ، أصبح هو الشخص الذى يحاول أن يكون على المستوى الغربى من المعرفة . وبهذا تصبح « الخبرة الغربية » طريقا لمقعد وزارى فى حكومة أقلية حضارية .

والأمر لايقف عند هذا الحد ، ففتح المجال أمام الشركات الأجنبية وربط

الاقتصاد المحلى بـالاقتصاد الرأسمالى الغربـى ، فتحا مجالاً واسعاً أمـام الأكثر تغريبـاً ، للحصول على الوظائف المتميـزة . وليس شرط إجادة الإنجليـزية فى إعلانـات الوظائف بـالأمر الهين . ففى أى أمـة يكون مفتـاح الرقى الـوظيفى معرفة لغـة أجنبية ؟! وهذا الأمر تطور إلى حـالة تمييز عنصرى لخريجى المدارس الأجنبية ، وصل لحد مبالغ فيه مع خريجى الجامعة الأمريكية ، والحاصلين على الشهـادات الأجنبيـة . معنـى ذلـك أنـه كلما ازدادت درجـة التنميـط المعـرفى الغربى ، كلما أدى ذلك إلى الحصول على أفضل وظائف بأعلى المرتبات .

والوضـع على هذا النحو يعطـى امتيازات مجزيـة لمن يمثل النمط الغـربى بـدرجة إتقـان أكبر . ولايمنـح أى مزايـا لمن يعـرف أمتـه ويعبر عنها ويبـدع لحسابها . فـإتقان العربيـة ـ مثلاً ـ ليـس شرطاً مطلوبـاً من أحد ، أمـا إتقان الإنجليزية ، حتى مع تدهور العربية ، فهو أحد مفاتيح النجاح الوظيفى .

وتتطور آليات تكوين نخبة الأقليـة الحضارية على المستوى الثقافى ، حيث المبارزة فى نقل المعارف الغربية ، والحصول على الشهادات من الخارج . وتفتح وسائل الإعلام والثقافة أبوابها أمام حاملى ثقافة الغرب ، لتشكل منهم نخبة ، لاباختيـار الأمة ، بـل باختيار السلطـة . فتصبح مساحـات واسعة مـن عالم الثقافة المقروءة والمسموعة والمرئية تحت حكم نخبة الأقلية الحضارية .

ثم توضـع فى النهاية شروط التفوق ، وتتجمع فى المجـال التعليمى والمهنى والعلمى والثقـافى لتمثل النمط المرغـوب وتتحدد ملامحه . والنـاس فى سعيها للحياة ليست مكلفـة بالنضال المستمر ، فالنضال وظيفـة الطليعة وأصحاب الرسالة ، أما الشعب فى مجموعه فوظيفته الأساسية هى الحياة وترتيب أوضاعها والاستمرار والبقـاء . وجملة هذا الوضـع تدفع أجيالا وشرائح واسعـة ، لتبنى نموذج ثقافى معرفى مهنى ، حتى يتاح لها النجاح وتحقيق الطموح . وليس كل

من يتبنى هذا النموذج يقتنع به ، أو يعيش على أساسه ، فالأغلبية تتبنى هذا النموذج كوسيلة للعمل ، وبالتالى تحقيق سبل الحياة ، وأقلية من هؤلاء تؤمن بالنموذج الغربى ، وتعيش على أساسه ، وتحوله إلى نمط حياة ، والغريب أن هذه الأقلية سرعان ما تصبح القائدة لعملية تكوين النخب الحاكمة ، لأنها هى التى تحصل على لقب « الوكيل الغربى المحلى » ، والذى يلقى الدعم الخارجى المعنوى والمادى .

وتتكامل هذه الصورة على المستويين المادى والحياتى ، من خلال إنتاج سلع غربية وتأسيس سوق على مزاج غربى ، ثم دفع المستهلك من خلال احتوائه إعلانيا لاستهلاك المنتج الغربى ، حتى يتكيف ذوقه وميوله مع هذا النمط . وهنا يتم تكوين نخبة اقتصادية تتحول إلى الخارج ، حيث مصلحتها . فأغلب المنتجات بتصريح من شركات عالمية ، وكذلك فإن التقنية الصناعية مستوردة ، وأخيراً فإن الاقتصاد مدفوع للتصدير .

على ذلك فإن أصحاب الملايين ينضمون تدريجياً للأقلية الحضارية ، ويقومون بدور الوكيل الاقتصادى الذى يعد امتداداً للنمط الاقتصادى العالمى ، ويروج لمفرداته وسلعه ، ومزاجه ونمطه . ولعل فكرة الاقتصاد الموجه للتصدير هى جزء أصيل من عملية إلحاق الاقتصاد الوطنى بالخارج . لأن الشروط المفروضة على الاقتصاد المحلى ، والتى تتحكم فى مدى نجاحه يتم ربطها بالخارج الذى يصبح الحاكم الحقيقى للاقتصاد المحلى .

واستمرار الآليات السابق ذكرها وغيرها ، يعنى أننا أمام آلة ضخمة ، تنتج وكلاء غربيين ، وتسمح لهم بتشكيل النخبة الحاكمة . مما يعنى استمرار الحال ، وتدهور وضع قيمنا ونموذجنا المعرفى . ولعل الدعمين السياسى والمالى الغربيين ، من أهم عناصر بث الروح فى هذه الآليات .

وعلى المستوى السياسى فإن إلحاق نظامنا السياسى بالنظام الغربى ، جعل الحكومة والدولة تقفان فى صف تدعيم آليات إنتاج الأقلية الحضارية . حيث إن النظـام الحاكم ، أصبـح يطبـق كل الـوصفـات القـادمة مـن الخارج ، فى الاقتصاد كما فى التعليم ، وحتى فى القانون .

حرب القيم الأهلية

لا أظن أنه يمكننا تجاهل ما تمر به الأمة من صراعات حادة ، بل إن مشاهد الواقع الراهن تؤكد كل يوم على تصاعد حدة النزاع الأهلى . فالصراعات الراهنة تدور بين أبناء الأمة أنفسهم ، لتجعل ساحة المعركة الداخلية شديدة الأهمية ، لدرجة نتصور معها أن الصراع سوف يحسم فى الداخل أولاً ، قبل أن تحسم الصراعات الخارجية ، والتى نظن أنها ستكون نتيجة لما تسفر عنه الصراعات الداخلية من نتائج .

وليس صحيحاً أننا نعيش أى قدر من الاستقرار ، بل نحن كأمة تعيش بالفعل حرباً أهلية . ربما تكون ملامح الحرب وأدواتها مختلفة عن الصور التقليدية . فهى ليست حربا دموية دائماً ، ولكن لها مظاهر دموية ، ولحظات تفجر دموى . وحتى نفهم ما يجرى علينا أن نجمع أطراف وأجزاء الصورة معاً ، لنحدد مجال الحرب وأسبابها وأطرافها الفاعلة . والحرب ليست فقط فعلا عسكريا مسلحا ، وبالتالى فالمشاهد الدامية هى جزء وفصل من فصول الحرب ، ولكنها ليست كل المشاهد والفصول .

والحرب التى نعنيها هى النزاع الأهلى ، بوصفه حالة تنازع بين أبناء الأمة الواحدة ، وهى حالة تخرج من رحم تعارض المصالح لحد الاقتتال ، فالتعارض السافر فى المصالح يمنع وحدة الأمة ، ويفرق بين أبنائها . والأمر فى الأمتين العربية والإسلامية يتجاوز تعارض المصالح فيما نظن . فالمصالح هى مظهر

من مظاهر الحياة ومتطلباتها ، والتعارض فى المصالح يولد الصراع ، ولكنه أيضاً يفتح الباب أمام تسويات ما ، تكون قادرة على حفظ الحد الأدنى من مصالح كل طرف .

ولكن هناك نوعا من تعارض المصالح يشبه المرض الخبيث . وهو التعارض الذى تستحيل معه أى تسوية ، فالتنازل النسبى من طرف لآخر لايحقق مصلحة الأول أو الثانى . وإذا تصورنا ذلك التعارض الخبيث ، سنواجه قاعدة الكل أو لاشىء . وتلك هى القاعدة المولدة لحالة الصراع المفضى للنزاع والحرب ، حيث تكون المفاصلة هى القاعدة . فالمصالح عندما تتعارض لحد أن تلبية مصلحة ما تؤدى إلى تدمير مصلحة أخرى ، تصبح بذلك مصالح متصارعة بحكم تكوينها ، فالصراع بينها حتمى .

والأمر يحتاج إلى نظر عميق وبصيرة نافذة . لأن الحديث عن الحرب الأهلية ، والصراع والنزاع يجرنا إلى الحديث عن الوفاق الوطنى والحوار الوطنى وغيرهما . فإذا كانت الحرب حتمية ، فإن الوفاق مستحيل . وإذا نظرنا إلى واقعنا بهذه الصورة ، سوف نميل للحدة الممزوجة بالخوف وربما باليأس . ولذلك فإن صورة الحرب الأهلية ليست مرغوبة فى حد ذاتها ، ولا يجب أن نستخدمها أداة فى الصراع لنوقف الحوار . تلك هى الإشكالية التى نمر بها الآن . فوصف الواقع الراهن ومعرفته أمر ضرورى ، حتى نتعامل معه بشكل إيجابى . وما يتنازعنا ـــ وأتصور أنه يتنازع غيرنا ـ هو أهمية اكتشاف الواقع وضرورة المكاشفة ، مع الخوف من نتائج ذلك ، فهل الأصح أن نبث دخانا كثيفا على واقعنا ، فنخفى الجزء الأكبر من أزماتنا ، مما يسمح لنا بالحديث عن الحوار والوفاق ، أم علينا أن نقدم على المكاشفة بكل تبعاتها ؟!

فى ظنى أننا وصلنا لمفترق الطرق ، ولم يعد أمامنا إلا تحرير المسألة برمتها .

والمكاشفة تعنى أن نخرج الصراع المضمر ، ونفتح الجرح الغائر ، ونكشف أبعاد النزاع ، لتخرج الحقيقة إلى سطح المواجهة . ربما يتيح لنا ذلك احتدام الحرب على مستوى الفكر والرأى ، قبل أن تحتدم على مستوى البشر ، وتنطلق لغة الدماء .

أتصور أن المكاشفة ضرورة فى هذه اللحظة التاريخية ، فالواقع يؤكد أن الحرب تستعر ونيرانها تشتعل ، وأن شيئا من الحوار أو الوفاق لم يحسم قضية ، ولم ينزع فتيل المعركة . بل الأمر تطور لحدٍ خطير ، وهو إثارة قدر أكبر من الغموض حول ما يحدث ، وإطلاق الصور الإعلامية الغامضة والمشوشة والمضللة ، لحد جعل الصراع يكمن أكثر ، ويزداد حدة وشراسة ، لما تولد فيه وبه من مشاعر الغبن والظلم .

فهل تكفى تلك المبررات ؟ لا بل نضيف عليها أن قواعد الوفاق والحوار الوطنى باتت تمثل أحياناً لعبة غير شريفة ، وكأن المقصود منها لا الوفاق بين طرفين ، بل تحييد طرف لصالح الآخر . فلعبة الوفاق والحوار تدور تحت حماية السلطة والسلطان ، وتحت طغيان الكوكبية والهيمنة الغربية ، لهذا ظهر واضحاً أن أى حوار يبدأ من مسلمات لا تقبل الجدل ، تظهر وكأنها مسلمات إنسانية عامة ، ومن داخلها تخرج تحيزات كثيرة تجعل الوفاق، ليس إلا استسلاماً من طرف لآخر .

ثم ها هو عصر الحوار ـ تلك العملية الإنسانية المتحضرة كما يقولون ـ عصر يفرض مقولاته على الجميع ، وكأن المقصود بالحوار هو حرية أن تختار تلك المسلمات ولاشىء غيرها . وقواعد الحوار السياسى والحوار الدينى معلومة لكل الأطراف ، فهو حوار « ديمقراطى » « ليبرالى » ، يؤمن بالحرية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات . وهو حق أريد به باطل ، فتلك التعبيرات الجميلة لا تحمل

بداخلها إلا قيم الحضارة الغربية . فهى ليست قواعد دولية عامة غير متحيزة حضارياً ، بل هى مصطلحات متحيزة حضارياً تسمح بأفكار وترفض أخرى . بهذا أصبح الحوار أداة لتنميط المختلفين ، وإعادة إنتاج أفكارهم فى قالب مغاير ، يؤدى فى النهاية بالطرف المختلف إلى ترك قيمه الأصيلة .

ويبدو أن مباحثات السلام بين العرب وإسرائيل هى النموذج الأمثل للعصر ، فهى تسويات استسلامية ، يخرج منها العرب وهم أصحاب الحق ، بعد أن تفرض إسرائيل شروطها ، وهى المعتدى الذى لاحق له ، فهو حوار يجعل المجنى عليه فى موقف الجانى ، ويعطى للجانى شهادة براءة .

أليس هذا هو ما يحدث فى حياتنا الثقافية ، حيث تدور الحوارات بين النخبة المثقفة المتغربة ، بوصفها المجنى عليه والقاضى وممثل الإدعاء ، وبين التيارات الإسلامية ورموزها بوصفها الجانى المتهم دائماً . ويطلب من الجانى المزعوم أن يعلن توبته تحت شعار الديمقراطية والليبرالية والحرية وحقوق الإنسان ، فإذا فعل ذلك تحول إلى المنظومة الغربية . فالمطلوب لا يكاد يكون إلا تكريساً للظلم . فالمنظومة الغربية وافدة ، وهى التى حملها الاستعمار والهيمنة والإمبريالية والاستغلال ، وبالتالى هى الجانى ، أما المنظومة الإسلامية فهى المجنى عليه الذى سحب حقه فى الحياة ، فى أرضه وداخل أمته . ولكن شروط الحوار ليست إلا شروط الظلم المحققه للطغيان .

بهذا المعنى نظن أن الحديث عن الحوار والوفاق ليس إلا تكريساً للحرب . فالحوار غير العادل يؤدى للظلم ، والأخير مولد للعنف والفرقة والتنازع . لذلك فالحوار ليس إلا أحد مستويات الحرب ، ولكنها الحرب الكامنة التى يحاول فيها كل طرف خداع الطرف الآخر ، لينتصر عليه وفاقاً ، أى ينتصر عليه برضاه وتوقيعه . وتلك أزمة حقيقية ، لأنها تذكرنا بما يفعله الكيان

الصهيونى بالأمة العربية ، لأنه الآن يسطر وثيقة انتصاره ، ويفوز بتوقيع النظم العربية ، على ذلك الإعلان المظفر الذى حول المعتدى إلى دولة شرعية . فالسلام بهذا المعنى ، هو استسلام بدون مبرر مقبول .

هذا هو جوهر المأزق ، أن ننظر للواقع لنعرفه . ولا أظن أن الحديث عن الوفاق والحوار يفيد ، إذا كان حد التنازع قد وصل إلى أقصاه . وأيضاً لا نتصور أن كشف عناصر الحرب ، يؤدى إلى تولدها ، وإشعال نيرانها . بل أعتقد أن وقائع حياتنا ، فى السنوات الماضية ، تؤكد أننا ندخل إلى الحرب دخولاً مروعاً ، فالثمانينات تبدو مساحة للحوار ، ولكن التسعينات ليست مساحة إلا للحرب . والسبب فى ذلك حسب ظنى أن الحوار لم ينفع ، وشروطه لم يتفق عليها ، أو كانت جائرة . وفى كل الحالات فإن مرور الزمن يزيد حدة الحرب ، ويجعل الأصح أن نواجه الموقف دون تجميل له .

تلك هى المبررات ، التى تجعلنا نقدم على التعامل مع الواقع كما هو . فلا يبدو هناك أى مهرب من المواجهة !!

فماذا عن الحرب الأهلية ؟! ما نقصده فى الواقع أن الأمة دخلت مرحلة الصراع الفاصل فى تاريخها بين الوافد والموروث . والحلقات السابقة كانت مراحل التاريخ الطبيعى الذى يبدأ بالانبهار بالآخر ، والخوف منه ، ومحاولة التوفيق التى سرعان ما تصبح تلفيقا ، ثم يظهر الوافد على حقيقته ، فهو ليس خيراً كله ، ولا شراً كله . وكذلك يظهر الموروث ، فهو ليس ضعفاً دائماً ولا جموداً مستمراً .

ومع ظهور الوافد على حقيقته ، وظهور جانبه الاستعمارى المهيمن أصبح الوافد القيمى والفكرى ، دخيلا يقاوم ، ويشحذ قوى الداخل ضده . ومع إحياء الموروث تفجر منه قيمه وإيجابياته وإمكانياته . فإذا كانت البداية

صدمة ، ثم انبهارا ثم توفيقا ، فإن النهاية أصبحت استعمارا ثم هيمنة ، ثم غزوا ثقافيا . والآن ، تفجر الصراع على المستوى الدولى ، فالدول الغربية قررت فرض القيم بقوة السلاح ، وشعوب الحضارات الأخرى ترفض وتعلن العصيان .

ذلك الصراع فيما نتصور تجسد فى المواجهة بين الوافد ، ممثلاً فى الدول الغربية وقوتها ، والأنظمة الحاكمة وأسلحتها ، والنخب المتغربة ونفوذها وبين الموروث ، ممثلاً فى الأمة نفسها وروحها وتاريخها وقيمها ، وطليعتها التى تقود النضال والنهضة . لذلك قلنا إن المصالح متعارضة لحد الاقتتال ، وقلنا إننا بصدد حرب أهلية ، هى حرب القيم الأهلية ، فى فصولها دماء كثيرة ، وفى فصولها أيضاً معركة المصير لأمة العرب والمسلمين .

فالحرب الأهلية فى رأينا ، هى التى تدور بين الخارج ممثلاً فى وكلائه ، والداخل ممثلاً فى طليعته . وبين الطرفين تتعارض المصالح ، لا بين النخبة المتغربة وطليعة الأمة فقط ، بل الأهم أن الصراع بين الطرفين يحمل فى جنباته تعارض المصالح بين الأمة وحكامها ، وبين الأمة والأمم الأخرى . فما حدث هو حرب أهلية داخلية زرعت من الخارج ، بدعم من الداخل ، فأصبح الصراع بقدر ما هو داخلى وبين أبناء الأمة الواحدة ، بقدر ما هو محمل بكل الأزمات الدولية ، وما فيها من تعارض مصالح بين القوى والضعيف .

وعلينا أن نلاحظ ، أن الدول الغربية المهيمنة تريد فرض قيمها علينا ، وكذلك تريد ضمنياً أن تمنع أى صحوة عربية إسلامية ، لأنها ترفض قيام حضارات مختلفة عنها . فإذا تصورنا ما يحدث الآن سنكتشف أن المنوط بهم فرض الهيمنة علينا ، وعرقلة نهضة حضارتنا هم من أبناء الأمة وكلاء الغرب المحليين الذين أصبح تاريخهم غير تاريخنا ، وأصولهم غير أصولنا . فإذا كان

الاستعمار اعتداء مفضيا للحرب والمقاومة ، فإن الاستعمار المحلى القائم على أيدى أبناء نفس الأمة يفضى إلى الفتنة داخل الأمة ، ويولد الحرب الأهلية .

وذكاء الآخرين أنهم أوكلوا غيرهم نيابة عنهم ، فى فرض الهيمنة علينا . وبهذا يتحقق لهم السيطرة من خلال الوكيل المحلى . فقوى الهيمنة وضعت فى صفوفها الأولى وكلاء من أمتنا ، فأصبحت الحرب أهلية وداخلية ، وكان أهون أن تكون خارجية . وهو أمر أدى فى النهاية لزرع الفتنة ، بتقسيم الأمة ، إلى فريقين ، أحدهما خرج عن قيم الأمة ، والثانى ملتصق بها ، فأى حرب تلك !!

فلنعد للوفاق إذن لنسأل ما المقصود بالوفاق ؟ فهل هو وفاق بين حضارات العالم على أرض أمتنا ؟ هل المقصود به أن نكون أمة متسامحة لحد قبول أى قيم وافدة ؟ أم أمة مسالمة لحد ترك عقلها وقلبها معروضين للإيجار والاستغلال من الآخرين ؟! عن أى وفاقٍ يتحدثون ؟!

إن زرع منظومة لقيم وافدة داخل تراب الأمة ، هو السبب الحقيقى فيما نحن مقدمون عليه من حرب أهلية، لذلك نسميها حرب القيم الأهلية . فداخل أمتنا نواجه بنخبة حاكمة تتبنى قيما وافدة ، وتطبق قوانينها ، وتفرض نظمها ، وتحقق بذلك مصالح الغرب والنخبة فقط ، متجاهلة بذلك الأمة . وفى أحسن تصور فهذه النخبة تتصور أن مصلحة الأمة فى إلحاقها بالغرب ، وهو أمر لا يتأتى إلا بتنازل الأمة عن قيمها .

والنخبة المتغربة وصلت لحد التورط . فوجودها وكيانها ومصالحها تعلقت بالغرب ، وأصبح الصراع بالنسبة لها صراع حياة أو موت . والمشكلة الأكبر أن النخب الإدارية والعسكرية أقامت نظم الحكم على أسس من التبعية للخارج ، فى الرؤية والأدوات والأفكار ، ثم أصبحت التبعية فى القرار

السياسى نفسه . وكل ذلك يدفع وكلاء الغرب ، نحو التمسك الشديد برؤيتهم ، وفرضها بالقوة .

وعلى الجانب الآخر فإن طليعة الأمة تشعر بمسئوليتها نحو قيم الأمة ، ونحو حماية جماهير الأمة ، حتى لا تتحطم قيمهم ، ولا تستعمر عقولهم أو قلوبهم . وفى وعى طليعة التراث أن ما يحدث هو انتهاك للمقدس وتجاوز للتاريخ وسحق للهوية ، وهو ما يجعل الطليعة ترى نفسها مكلفة نيابة عن الأمة ، للدفاع عن القيم الأصيلة . فترتبط مصالح الطليعة بمصالح أمتها ومشروع نهضتها .

هو تعارض مصالح مفضٍ للحرب ومولد من اختلاف جذرى فى منظومة القيم ، مما يجعله غير ملائم للوفاق أو الحوار . فهل فى ذلك مبالغة ؟! لا أظن فكل منظومة للقيم مستقلة عن الأخرى ومتعارضة معها . والتوفيق بين منظومات القيم أمر مستبعد لأن لكل منظومة قيمها ونظامها الداخلى والمنظومات القيمية نتاج حضارى، لايمكن أن نشكل فيها ، ونصطنعها . وكذلك فإن كل منظومة من القيم تحمل السلبى والإيجابى ، أى يمكن توظيفها فى النهضة ، وكذلك يمكن أن يؤدى الاستخدام السلبى لها إلى التأخر. وكل منظومة فى النهاية هى نتاج كفاح أمة ، وهى الأنسب والأفضل والأكثر ملاءمة لهذه الأمة عن غيرها من المنظومات . والمنظومة العربية الإسلامية هى الأفضل لنا ، ومنها ستحقق النهضة ، وبدونها لن نحقق شيئا وهي خاصة بنا ولاتلائم الغرب ، ولاتنفعه ، كما أن منظومتهم لاتلائمنا ، ولا تنفعنا .

لذلك نتصور أن ما يحدث الآن هو إفراز للصراع بين المنظومة العربية الإسلامية ، والمنظومة الغربية ، لأن التعايش بينهما غير ممكن داخل أمتنا . وإن كنا ننادى بالتعايش بين الحضارات والأمم على مستوى العالم ، ولكن الأمة الواحدة ، لن تكون مسرحاً لزرع حضارات الأمم الأخرى .

العنف المستتر

إن الصراع بين الوافد والموروث ، أى بين قيم الحضارة الغربية وقيم الحضارة العربيـة الإسلامية خلـق حالة مـن العنف الضمنـى ، تفجر كل يـوم صراعاً جديداً ، وتدفع الأمة نحو صراع مصيرى يستنزف قواها ، فقد أدى هذا النزاع إلى تشكل الحالـة الراهنة ، فى قوى صـدامية لكل منهـا مؤسساتها ومنابـرها . وأصبحت القاعدة أن كل فريق يحاول استبعاد الآخر تماماً .

ونتصور أن المعركة تدور على أسس من الصدام لا التعايش . والواقع أن ما نمر به الآن هو أزمة تاريخية طاحنة . لأن اختلاف التيارات السياسية والثقافية داخل الأمـة أمر عادى ، بـل هو أمر مطلوب ، لأنـه يعنى التعدد وفيـه الثراء ومنه الازدهار . ولكن الحالة الراهنة تؤدى للصراع ، لأنها صدام بين تيارات ، لكـل منهـا مرجعيـة مختلفـة . حيـث العلمانيـة تستنـد للمرجعيـة الغـربيـة ، والإسلاميـة تستند للمرجعيتين العربيـة والإسلامية . واختـلاف المرجعيات ، يجعل الصراع وكأنه بين دول وحضارات ، لا بين تيـارات تنتمى لأمة واحدة . وفى هذا فرق كبير بين التنافس بين رؤى الأمة ، وبين الصدام بين رؤى الأمم .

تلك الحالة أفرزت فى تصورنا ظاهرة هـامة ، وهى انقسام القوى السياسية والثقافية إلى كتلتين ، لكـل منهما كيانه المنفصل عـن الأخرى . والانفصال فى الواقع نتاج انفصال المرجعية ، وهو أمر يفضى لحالة ضياع الأرضية المشتركة . فبين العلمانية والإسلامية ما بين حضارة وأخـرى وأمة وأخرى . فما يربط بينهما

هو ما يجمع البشرية كلها ، من حيث إن الإنسان كمخلوق واحد فى النهاية . وهذا المشترك لايكفى لإقامة أمة ، ولا نظام حياة . فهو كافٍ لخلق قيم دولية للتعايش بين الأمم المختلفة . ولكنه غير كافٍ لإقامة أمة واحدة .

فإذا كان اختلاف المرجعية يؤدى إلى نخبة تتبع الغرب ، وطليعة تمثل الأمة ، فهو يؤدى أيضاً إلى حالة من العنف المستتر القائم والناتج من ذلك الاختلاف المرجعى ، فالاختلاف المرجعى يسحب أى أرض مشتركة ، وهو ما أدركته كل القوى ، وتصرفت بناءً عليه ، عن وعى أو غير وعى .

لذلك يغلب على العلمانيين النظر إلى الإسلاميين ككتلة واحدة ، وكذلك يغلب على الإسلاميين النظر للعلمانيين ككتلة واحدة . فكل طرف يجد فى الآخر نقيضاً له ، فالمنظومة الإسلامية نقيض للعلمانية الغربية ، لذلك فالعلمانى يرى أن التهديد يأتيه من الإسلامى المتطرف ، كما يأتيه من الإسلامى المعتدل ، لأن التهديد بالنسبة له إسلامى أولاً وأخيراً . وكذلك بالنسبة للإسلامى ، فهو مهدد من كل ما هو علمانى ، سواء معتدل أو متطرف .

وهذا الموقف أدى فى النهاية لتشكيل وعى كل طرف بالآخر، حتى بات واضحاً أن كلا منهما لا يرى التمايزات والاختلافات داخل الكتلة الأخرى . وعلى هذا الأساس قامت الحملة الظالمة ضد الإسلامى ، مؤكدة أن كل فصائله إرهابية . وفى ذلك تأكيد على أن الطرف العلمانى يرى الإسلامى ككتلة واحدة، ويعتبر كل ما هو إسلامى تهديداً له ، كذلك فإن ذلك يؤكد أن اتهام الإرهاب يوجه للجميع ، لأن الهدف هو استبعاد كل ما هو إسلامى ، لأنه بالضرورة معادٍ لكل ما هو علمانى .

ونفس الأمر ينسحب على الفصائل الإسلامية فى موقفها من الكتلة العلمانية. والواقع أن هذه الرؤية صحيحة ، لأن أى نجاح لتأسيس المرجعية العربية الإسلامية سيكون على حساب محاولات تأسيس المرجعية الغربية .

بمعنى أن محاولة كـل فريق استبعاد الآخـر ، هى تعبير عن حتمية حضـارية ليس منها مهرب . ففى النهايـة يجب أن تنتصر مرجعية على أخرى ، وكذلك فإن كل انتصار لمرجعية هو سحب من رصيد الأخرى .

لذلك فالعلمانى يدرك الفروق بين العلمانيين ، والإسلامى يدرك الفروق بين الإسلاميين ، وكلاهما لا يدرك الفروق فى الطرف الآخـر فالغالب أن وعى كل طرف يترجم الحقيقة بطريقته ، ويحولها إلى صـورة شائعة وبسيطة . بمعنى أن العلمانى كافر ، والإسلامى إرهابـى ، وتلك هى الصور الشائعة . وهى تعبير رمزى غامض ، عن أن الخلاف بين مرجعيتـى الأول والثانى ، خلاف لا يقبل المصالحة .

والحقيقة أن البعض حـاول أن يطفىء نيران الفتنة ، وهنا ظهـر الاعتدال . فالعلمانى المعتدل يؤكد على مناصرتـه للإسلام الصحيح . والإسلامى المعتدل يؤكد على تـأييده للديمقراطيـة فيما لا يخالف الإسلام . والاعتدال هنـا ، يرفع شعارا ، يعبر مـن خلالـه عن التزامـه بقواعد اللعبـة السياسيـة وشروط القيم الموروثة . ولكن حقيقة الصراع تتجاوز ذلـك ، لأن شعار الإسلام ، لن يجعل العلمانى منتمياً للحضارة العربية الإسلامية ، وشعار الديمقراطية لن يؤدى إلى إلحاق الإسلامى بالمرجعية الغربية .

كما أن استخدام الإسلام من جـانب ، واستخدام الديمقراطية مـن جانب آخر جعلا المصطلحات تستهلك إلى حد يـرفع من درجة الصراع ولا يخمده . فالعلمانى يـرى أن ديمقراطية الإسلامـى زيف ، والإسلامى يـرى أن إسلامية العلمانى زيـف آخر . لذلك فـإن الاعتدال اكتسب درجـة عالية عن سخـونة الصراع . وبات كل طرف ينسب لنفسه الاعتـدال وينفيه عن الطرف الآخر . وكذلـك أصبح كل طـرف ينسب لنفسه الإسلام أو الـديمقراطية وينفيـه عن

الآخـر. ممـا دفـع كـل طـرف إلى اعتبـار نفسـه ممثـلاً لـلاعتـدال والإسـلام والديمقراطية، واتهام أى « آخر » بأنه إرهابى ومتطرف وكافر وعميل وهكذا .

وهذا هـو مناخ التطـرف المفضى فى النهايـة إلى رفع درجـة العنف المستتر. والأخير هو سبب مباشر أو غير مباشر فى تعظيـم درجة العنف العلنى المباشر وهذا حقيقـى فيما نظن ، لأن الفكر الإسـلامى المعتـدل يرفض إعطـاء شرعية للقيم الغربيـة ، والعلمانى يعتبر ذلك تصريحا بتكفير العلمانى ومـن ثم قتله . والفكر العلمانـى الغربى المعتـدل يرفض إعطاء شرعيـة للقيم الإسلاميـة ، مما يؤدى إلى تـوسيع مظلـة تهمة الإرهـاب على الجميع . معنـى ذلك أن النخبـة العلمانية تساعد الدولة على فرض مظلـة اتهاماتها على كل التيارات الإسلامية ، وكذلك فإن الطليعة الإسلامية لا تنشر فكـرا يمنع توسيع مجال العنف من قبل الجماعات المسلحة .

وأصبحـت كل كتلـة تضم التطـرف والاعتدال ، والعلمانيـة تملك سـلاح الحكومـة الفتاك ، والإسلامية يخرج منهـا سلاح الجماعات المسلحة الـدامى . والاعتدال فى النهـاية ، أصبـح هو الضحيـة ، لأنه يتكلـم بلغة مسـالمة تقدر الآخر ، ولاتتعـدى على حقوقـه ، ولكنه يـدخل فى الصراع الأكثـر دمويـة ، فيصبح جانيا ومجنيا عليه معاً .

تلـك هى الصـورة بـلا تجميل . وهـى واقع نعيشـه بكـل وضوح ، واقـع لايعرف الحوار ولا التعايش ، ويزداد فيه التطرف وينمو العنف . لذلك أصبح لكـل فريـق أدوات عنيفـة ، فالإسـلامـى ــ من وجهـة نظـر العلمانى ــ غير ديمقراطى ، وبالتالى خارج عن القانون ، لذلك فهو إرهابى ، والعلمانى ـ من وجهة نظر الإسلامى ـ كافر ، ومعادٍ للأمة ، لذلك يستحل دمه . نعرف تماماً أن تلك المقـولات ، هى مقولات التطـرف ، ولكن المسـاحة التى تحتلهـا هذه

المقولات تزداد كل يوم ، لحد جعل الخطر قادما . والواقع أن نظام الحكم يقف موقفاً غريباً تجاه هذه القضية ، فهو إما أن يزايد على الإسلام ، أو يتمادى فى محاربة الإسلاميين ، ولا حل ثالث لديه . وكأنه يريد الإسلام شرعية له ، دون أن يحقق مرجعيته على أرض الواقع ، ويحاول أن يسحب أى شرعية إسلامية من أى قوى أخرى . وهو بهذا طرف أصيل فى إشعال نيران الفتنة ، لأنه يزايد على العلمانية ضد الإسلاميين ، ثم يزايد على الإسلام ضد العلمانيين . لذلك تجد أن كلا الطرفين يتهم الحكومة أحياناً ، بأنها تناصر الطرف الآخر .

أما معركة الإرهاب الجارية خلال سنوات التسعينات من القرن العشرين ، فهى حالة تدعو للقلق . لأن التحالف ضد الإرهاب أصبح يضم الحكومة والنخبة المتغربة والقوى الدولية ، ضد كل ما هو إسلامى . وهى حالة فى نظرنا ، مفجرة لكل كوامن العنف الصريح والمستتر .

نعم إننا فى مأزق !!

والحل فى تصورنا أن ننزع فتيل العنف ، ونطرح الرؤى المعتدلة ، ونحدد قواعد اللعبة ، ونجعل المواجهة ، مكاشفة لاتنقصها الجرأة . معنى ذلك أننا نحتاج للرؤى المعتدلة من الطرفين ، لنعطى لها مساحة كاملة للتأثير ، ولا نلقى بظلال الشك حولها . أى نؤسس مناخ الاعتدال أولاً ، ضد كل عنف ، وكل تطرف . ونسمح بأفضل فرص ممكنة للحوار بين قوى الاعتدال .

والهدف من ذلك ليس حل الأزمة ، ولكن إخماد نيران الفتنة ، حتى نصل للمرحلة التى تتبلور فيها الرؤى الفكرية وتنضج ، ويتم الاختيار بين الرؤى سلمياً . نعم علينا أن ندرك أننا أمام صراع حتمى ، ولا بديل أمامنا إلا بجعل الصراع سلمياً ، حتى نتلافى العنف والعنف المضاد ونحقن الدماء ، فلا ندخل المستقبل بثوب ملطخ بالدماء .

إننـا نعيـش الصراع ، وعلينـــا أن نعترف بهذا ، ولـن ينفعنـا أى محاولات للهروب . ولكن إذا غاب عنا الخطر ، ولم نتلافه ، فإننا نعرض الأمة للضياع . فمناخ العنف والتطرف خطر على الجميع . والأيدى الخارجية العابثة خطر على الجميع أيضـاً . فإذا ساد العنف ضـاعت الأمـة ، وإذا تحكمت فينـا القوى الخارجية ضاعت الأمة أيضاً . وعلى عقلاء الأمة أن يعرفوا تلك الحقيقة .

الفهـــرس

رقم الايداع : ٩٦/١٤٢٤٩
I.S.B.N. 977 - 09 - 0366 - 3

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)